العدد ٢٦ ، ١٩٧٠

بحوث

الشؤون السوفيتية

يصدرها

معهد دراسة الشؤون السوفيتية

في ميونيخ ، المانيا الغربية

محتويات العدد

الأهداف السياسية لمؤتمر آلما آتا

الاستعمار الروسى: الامبراطوريتان الروسيتان القيصرية والسوفييتية

التركيب الاجتماعى للحزب

عرض وتحليل لأهم الأحداث

العدد ٢٦ ، ١٩٧٠

سياسات

الشؤون السوفيتية

يصدرها
معهد دراسة الشؤون السوفيتية
فى ميونيخ ، المانيا الغربية

محتويات العدد

الأهداف السياسية لمؤتمر آلما آتا

الاستعمار الروسى: الامبراطوريتان الروسيتان القيصرية والسوفييتية

التركيب الاجتماعى للحزب

عرض وتحليل لأهم الأحداث

(المجلة) نشرة دورية يصدرها معهد دراسة الشئون السوفييتية فى مدينة ميونيخ بألمانيا الغربية مرة كل ثلاثة أشهر، فإذا رغبت أيها القارىء الكريم فارسل بمقالاتك وبحوثك المختلفة إلى رئيس تحرير المجلة أما الاعلانات والاشتراكات وكذلك الواردات الأخرى فترسل الى مدير المعهد على العنوان المذكور أدناه.

كما يسر رئيس التحرير ان يقوم بنشر المقالات التى ترسل إليه إذا اعتبرها صالحة للنشر ويدفع أجر المقالات التى تنشر حسب تعريفة المعهد فى هذا الشأن، أما المقالات التى لا تنشر فتعاد الى كاتبها عند طلبه، والمرجو من كاتبى المقالات ان يحتفظوا بنسخة لديهم حيث ان المعهد غير مسئول عن ضياع الأصل.

يمكن اعادة أو اقتباس المواد فى "المجلة" جزئياً بشرط الاشارة الى مصدرها. ويرجو رئيس التحرير ان يتسلم دائماً نسخة من المنشورات التى احتوت على معلومات أو مواد نشرت فى "المجلة" من قبل، كما يرجو أيضاً الحصول على اذنه قبل اعادة نشر مقالات بأكملها.

الآراء المنشورة فى "المجلة" أو فى مطبوعات أخرى للمعهد تعبر عن آراء كتابها فقط ولا يجوز اعتبارها وجهة نظر المعهد: Institute for the Study of the USSR, 8 Munich 22 — Mannhardtstrasse 6 — Germany.

Bulletin ..... DM 24.— or $6 (in English, 12 issues per year)	**Dergi** ..... DM 4.— or $1 (in Turkish, 4 issues per year)
Studies on the Soviet Union ..... DM 24.— or $6 (in English, 4 issues per year)	**Estudios sobre la Unión Soviética** .. DM 4.— or $1 (in Spanish, 4 issues per year)
Analysis of Current Developments in the Soviet Union (mimeographed) (in English, 40 issues per year) ... DM 40.— or $10 (in Russian, 40 issues per year) ... DM 40.— or $10 (in Spanish, 20 issues per year) ... DM 20.— or $5	**Majallah** ..... DM 4.— or $1 (in Arabic, 4 issues per year)
	Problèmes Soviétiques ..... DM 8.— or $2 (in French, 2 issues per year)
Review of Soviet Medical Sciences DM 16.— or $4 (in English, 2 issues per year)	**Sowjetstudien** ..... DM 8.— or $2 (in German, 2 issues per year)

For Air Mail Delivery, please double the rate. — All rates subject to change without notice.

Herausgeber und Verlag: Institut zur Erforschung der UdSSR, e.V., München 22, Mannhardtstrasse 6, Telefon 22 06 81-84. — Printed in Germany by Wiesbadener Graphische Betriebe GmbH, Wiesbaden.

مجلة

الشؤون السوفيتية

العدد ٢٦ ، ١٩٧٠

رئيس التحرير

سليمان محمد تكبز

معهد

دراسة شؤون الاتحاد السوفيتى — ميونيخ

محتويات العـدد

الأهداف السياسية لمؤتمر آلما آتا ٣
بقلم: سليمان تكينر

الاستعمار الروسى: الامبراطوريتان الروسيتان القيصرية والسوفييتية ١٦
بقلم: فلودزيمير يتس باشكوفيتس

التركيب الاجتماعى للحزب ٥٧
بقلم: باروخ هازان

عرض وتحليل لأهم الأحداث ٦١

الأهداف السياسية لمؤتمر آلما آتا

بقلم: سليمان تكينر

نظمت اللجنة السوفييتية للتضامن مع الشعوب الأفريقية والآسيوية بالاشتراك مع أكاديمية العلوم السوفييتية، مؤتمراً دولياً فى صورة حلقة دراسات، وانضم إليها وفود من خمسين دولة من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وانعقد المؤتمر فى مدينة آلما آتا فى ٢–٧ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٩. واتضح بجلاء من البداية ان السوفييت أرادوا ان يجعلوا من هذا اللقاء الدولى فرصة لبث دعاياتهم، واستغلاله لاظهار الاحتفالات بالعيد المئوى للينين بصورة مثيرة تسترعى انتباه العالم الخارجى. وركز السوفييت إهتماماً كبيراً على وفد منظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية، ومقرها الدائم فى القاهرة، والذى ترأسه يوسف السباعى سكرتيرها العام.

وجرت أعمال المؤتمر مقسمة بين جلسات عامة وجلسات اللجان الفرعية التى شكلها المؤتمر، وقرىء على الحاضرين عدد كبير من التقارير والبحوث التى دارت جميعها حول الفكرة الأساسية: "تعاليم لينين فى ثورات التحرير الوطنية والمراحل المعاصرة للتحول الاشتراكى فى الدول النامية"(١). ومن أمثلة هذه التقارير والبحوث، "لينين وحركة التحرير الشعبية فى البلاد العربية"، "مبادىء لينين وأثرها فى حركات التحرير الوطنية فى جنوب أفريقيا"، "لينين وتحرير الهند"، "مراحل النضال المعاصر ضد الامبريالية الأمريكية – أمريكا اللاتينية كمثال"(٢)، "مسئوليات ما بعد التحرير"، "نتائج مستخلصة من تحليل أسباب الحروب المحلية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية"، "خطط سوفييتية لحل مشاكل الاسكان فى البادية والمدن"، "لينين وحركات التحرير الوطنية"(٣) . . . الخ .

---

(١) قازاقستانسقايا برافدا، ٢/١٠/١٩٦٩ .
(٢) نفس الصحيفة، ٣/١٠/١٩٦٩ .
(٣) نفس المرجع، ٨/١٠/١٩٦٩.

ومن عناوين تلك البحوث والتقارير، وكذلك من أسماء وصفات الأشخاص الذين حضروا المؤتمر، وأغلبهم سياسيين محترفين، يمكن الاستدلال على ان المؤتمر كان ولا شك عملا سياسياً خالصاً ولا يمت للعلم بصلة. بل ان الرسالتين المتبادلتين بين بريجنيف، السكرتير الأول للحزب الشيوعى السوفييتى، وبين المؤتمر، تضعان المؤتمر فى منزلة الفرع السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى.

فقد تحدث بريجنيف فى رسالته الى المؤتمر مثنياً على الجهود القيمة التى تبذلها الشعوب النامية حديثة الاستقلال من أجل " تصفية آثار الاستعمار كلية " و " تطبيق التغييرات والتجديدات الاجتماعية الجذرية "، مؤكداً ان " تجارب التاريخ تعلمنا ان هذه المشاكل كلها يمكن حلها عن طريق نضال منسق منظم ضد الامبريالية، تتولاه الدول الاشتراكية متضامنة مع القوى العمالية الدولية "(٤).

وتناسى بريجنيف أوضاع عشرات من الشعوب المقهورة التى تخضع للإستعمار الموسكوفى واخذ يكيل الوعود الخلابة بغير حساب لشعوب أخرى ويستعديها على غيرها. ثم يقول: " لقد أثبت الشعب السوفييتى المخلص، وما زال يثبت ولاءه لمبادىء لينين العظيم وأنه الأمين عليها وأنه متضامن دائماً مع الشعوب التى تسعى من أجل استقلالها ويؤيد حقها فى التحرير الوطنى ويقدم لها العون المادى والأدبى والدعم السياسى على أوسع نطاق"(٥).

وتضمن رد المؤتمرين على رسالة بريجنيف فى البيان الختامى للمؤتمر ما يلى:

ان المشتركين فى هذا اللقاء الدولى قد استفادوا كثيراً من التجارب الاشتراكية الوطنية فى الاتحاد السوفييتى، وايقنوا ان مبادىء لينين سلاح فكرى قوى يمكنهم الاعتماد عليه فى نضالهم ضد الامبريالية من أجل التحرير الوطنى والتقدم الاجتماعى(٦).

ولم يكتف المؤتمرون بهذا فأخذوا يؤكدون وقوفهم الى جانب موسكو وسيرهم فى طريقها طالما حافظت هى على مبادئها وطريقها نحو الثورة العالمية. فقد ورد فى البيان الختامى للمؤتمر ما يلى:

ان أعضاء الوفود بعد ان قاموا بدراسة وتحليل المشاكل التى تواجهها حركات التحرير الوطنى والناتجة عنها، وبعد بحث موقف البروليتاريا فى الدول الرأسمالية وأوضاع الشعوب فى الدول الاشتراكية، يرون بوجوب التضامن القوى بين قوى

---

(٤) نفس المرجع، ٢/١٠/١٩٦٩.
(٥) نفس المرجع السابق.
(٦) نفس المرجع ٩/١٠/١٩٦٩.

الاشتراكية وبين الشعوب المناضلة من أجل استقلالها الوطنى وتقدمها الاجتماعى وتوحيد صفوف جميع القوى المناضلة فى المعركة ضد الامبريالية(٧).

وهكذا نرى ان الهدفين السياسيين الأساسيين لموسكو من هذا المؤتمر قد سيطرا على جو الاجتماعات من بدايتها الى نهايتها. وكان أحد هذين الهدفين هو اقناع الشعوب النامية فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية " بتوحيد الصفوف فى المعركة ضد الامبريالية " أى ضمان وضع هذه الشعوب تحت توجيه موسكو. اما الهدف الثانى فقد كان اظهار النظام الاستعمارى السوفييتى بما يخالف الحقيقة، وتقديمه كنموذج يناسب الجميع.

وكان إفتتاح المؤتمر بكلمة ألقاها الكاتب التاجيكى ميرزا تورسون زاده، وهو رئيس اللجنة السوفييتية للتضامن مع الشعوب الآسيوية الأفريقية. وحاول ان يبين للمؤتمر الطريق الذى ينبغى سلوكه وان يشرح مهمة المؤتمر حسب التعليمات التى كلفته بها موسكو لتنفيذها، فقال:

نعتقد ان دراسة المشكلات اليومية الناجمة عن معارك نضال شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من أجل التحرير الوطنى فى ضوء آراء لينين — فى هذا الاجتماع — سوف يعطى النضال المشترك لقوى التحرير ضد الامبريالية أفكاراً جديدة هامة. كما ان ذلك سوف يهىء لنا تبادل الآراء والأفكار التى تخدم التحول الاشتراكى بعد التحرير، كما سيدلنا على وسائل التغيير الاجتماعى المنشود والثورة الاقتصادية المطلوبة شكلا وموضوعاً. ثم ان هذه الدراسة ستؤدى فى النهاية حتماً الى توحيد صفوف القوى المعادية للإمبريالية والى إزدياد التضامن بين الشعوب(٨).

ثم استطرد تورسون زاده فى خطابه الافتتاحى يحدث الضيوف ويحاول ان ينفذ المهمة التى كلفته بها موسكو لتحقيق الغرض الثانى للموتمر فقال:

. . . وضيوفنا الذين جاءوا الى المؤتمر من خارج الاتحاد السوفييتى أمامهم الفرصة للتعرف على تطوراتنا العظيمة فى الميادين الاقتصادية والثقافية والتعرف على كيفية بناء دولة وطنية فى جمهورية قازاخستان السوفييتية كما هو الحال أيضاً فى الجمهوريات السوفييتية الأخرى فى آسيا الوسطى. وسوف يرون بأعينهم أيضاً يقظة وطنية لم تشهد هذه الشعوب مثلها فى تاريخها وسرعة التقدم الاجتماعى وازدهار الثقافة الوطنية الأشتراكية.

---

(٧) نفس المرجع السابق.
(٨) نفس المرجع ٢/١٠/١٩٦٩.

وسوف يرون كيف كانت مبادىء لينين الخالدة هى النموذج الحى لانتصار الصداقة والاخوة بين شعوب الاتحاد السوفييتى(٩) .

وبعد تورسون زاده، تقدم د. ا. كونابيف، السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعى فى قازاخستان والمرشح لعضوية المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى، تقدم الى منصة الخطابة وقرأ على الحاضرين رسالة بريجنيف الى المؤتمر التى تحدثنا عنها قبلا، ثم تكلم عن " تعاليم لينين فى حركات التحرير الوطنية "، بحيث ابرز الطبيعة السياسية للمؤتمر، وكشف بوضوح عن عزم موسكو على توجيه المؤتمر فى طريق معين خططت له مسبقاً .

وشرع كونابيف يناقش بمهارة وحذق موضوع انتقال الشعوب خلال تطورها الاقتصادى من حالة التخلف الى حالة الرقى دون المرور بمراحل التطور الرأسمالى المعروفة . ولكى يدعم مزاعمه أخذ يستشهد بقول لينين من خطابه أمام المؤتمر العام الثانى للشيوعية الدولية فى عام ١٩٢٠ الذى جاء فيه :

هل يمكن قبول رأى يسلم مقدماً بضرورة مرور الأمم المتخلفة بمراحل تطور النظام الرأسمالى المعروفة، بعد ان تتحرر وتشرع فى السير على طريق تقدمها ؟ واجابتنا على هذا السؤال ليست بنعم(١٠).

واستشهد كونابيف كذلك برسالة لينين المعروفة الى شيوعيي التركستان فى عام ١٩١٩ وكان يتحدث فيها عن " الحتمية التاريخية " لتحول جمهوريات الشرق السوفييتى من النظام الاقطاعى الى النظام الاشتراكى(١١). هذا مع العلم بأن بلاد التركستان كانت قد أصيبت بنكبة كبرى حين دخلتها قوات الجيش الأحمر، وتحدث المؤرخون السوفييت أنفسهم عن ذلك . ولقد علق المؤرخ السوفييتى المعروف غ. صفروف فى كتابه " ثورة المستعمرات والتجربة التركستانية " الصادر فى موسكو عام ١٩٢١، على هذا الموضوع بأن " انتصار حكم الطبقة العمالية ليس شرطاً لنجاح الثورات الوطنية فى المستعمرات" . وكان قد أورد فى كتابه ان " الثورة جاءت الى تركستان عن طريق برقية "، ووصف تلك الأحداث بقوله ان " العمال الروس المستوطنين فى تركستان اشاعوا فى البلاد جواً من الفوضى الشاملة.وكانوا بلا قيادة أو برنامج أو تقاليد ثورية "(١٢).

---

(٩) نفس المرجع السابق .

(١٠) نفس المرجع السابق .

(١١) "إنشاء الاتحاد السوفييتى – مجموعة الوثائق" ، ١٩١٧–١٩٢٤، موسكو/لينينجراد ، ١٩٤٩، ص ١٣١/١٣٢ .

(١٢) "انتصار الحكم السوفييتى فى بلاد القازاق وآسيا الوسطى"، طشقند، ١٩٦٧، ص ١٦ .

وبعد ان أفاض كوناييف فى شرح " ضرورة التطور الاقتصادى الاشتراكى" للشعوب التى حصلت على استقلالها، عبر عن قلقه الشديد لأن أكثر الأمم النامية الحديثة الاستقلال لم تحدد بعد طريق تطورها فى المستقبل، وتحدث عن " اشتداد الصراع الطبقى " مع مر الأيام فى تلك البلاد وعن " ضرورة استئصال النظام الاستعمارى القديم من جذوره " و " وجوب احداث تغيرات اشتراكية جذرية " فيها . ثم تقدم الى الضيوف بتوصياته التى تعبر بطبيعة الحال عن وجهة نظر الحزب الشيوعى السوفييتى :

هذه التغيرات الضرورية أمر لا بد منه بالنظر الى أهميتها الحيوية بالنسبة لضمان وجود الدعامات القوية التى يستند اليها النضال للتخلص من الضغوط الاقتصادية التى تمارسها الامبريالية على الشعوب . وذلك يستلزم، كما اثبتت التجارب، ديموقراطية الحياة الاجتماعية على أوسع نطاق، ووضع القيادات الهامة فى أيدى ممثلى قوى الشعب الكادحة وتعبئة القوى البناءة من بين جماهير الشعب الضخمة مع توحيد صفوف القوى التقدمية المعادية للإستعمار(١٣) .

وينبغى ان ندرك ان المصطلحات اللفظية الشيوعية بخصوص عبارتى " المعادية للاستعمار" و " المعادية للامبريالية " تحمل معانى خاصة محدودة. إذ ان القوى التى تتولى قيادة المراحل الأولى من معارك التحرير الوطنى تتحول بالضرورة فى المراحل التالية الى قوى ديموقراطية. وقد تولى كوناييف شرح وجهة النظر الشيوعية السوفييتية هذه لمستمعيه فقال :

علمتنا الحياة ان مهام الثورة الوطنية الديموقراطية فى توجيه الشعب وارشاده الى طريق التطور الاشتراكى فى صالح المواطنين، لا يمكن ان تتحقق فى ظل قيادة وطنية برجوازية(١٤) .

ثم أشار كوناييف الى ان ضمان التعاون بين العمال والفلاحين والمثقفين التقدميين " واجب أعظم لا بديل له " مع التسليم أيضاً بأن هناك عقبات لا يستهان بها تقع فى طريق تحقيق النجاح للثورة ومخططاتها، وهى عقبات تنشأ — ولا سيما فى البلاد الحديثة الاستقلال — بسبب ضعف سيطرة الطبقة العمالية . ولذلك فان وضع طبقة الفلاحين التى تؤلف السواد الأعظم من المواطنين فى مثل هذه البلاد، يشكل أهمية كبرى. ثم ينصح كوناييف مستمعيه " بالاستفادة من تجارب الحركات العمالية فى العالم " للتغلب على مثل هذه العقبات .

---

(١٣) قازاقستانسقايا برافدا، ٢/١٠/١٩٦٩ .
(١٤) نفس المرجع السابق .

اما الأمر الذى وضعه كونابيف فى مكان الصدارة، فهو ضمان "ايجابية حركة الفلاحين". وكان يعبر عن رأى الحزب الشيوعى السوفييتى فى هذا الموضوع بقوله:

ومن أهم الأمور لتقييم قدرة الفلاحين على النهوض بثورتهم تقييماً سليماً، هو ان يدرك المرء جوهر طبيعة الفلاح ويتحقق من مدى صدقه فى الثورة على الأوضاع الاقطاعية الرأسمالية، ومما إذا كانت معاداته للاقطاع وثورته على ما يسمى بالتفوق الاقطاعى الرأسمالى تنبعث من أعماقه(١٥).

وحين تناول كونابيف بالنقد موضوع القوى السياسية والاجتماعية فى البلاد المتقدمة وخصائصها، اشار باهتمام بالغ الى الحركات "المعادية للشيوعية" فى تلك البلاد. وأشار الى أن مكافحة الشيوعية مسألة سائدة فى الحياة السياسية فى تلك الدول. ثم شعر كونابيف بضرورة ابراز "الأهمية الخاصة" التى يكتسبها "توحيد صفوف القوى الوطنية"، وقال مشيراً الى نشاط مكافحة الشيوعية:

ان الميول المعادية للشيوعية ميول خطرة وضارة على حركات التحرير الوطنية بصفة خاصة. كما انها تعوق نمو وحدة القوى الوطنية نمواً سليماً(١٦).

وفى النهاية وصف النشاط المعادى للشيوعية بأنه "سلاح سام يشهره المستعمرون فى أحرج الأوقات وأعصبها كما حدث فى اندونيسيا وهايتى. ولكن كونابيف لم يتحدث على الاطلاق عما تبذله الشيوعية من الجهود المعادية للديموقراطية التى تسعى لهدمها من أساسها، والتى هى السبب المباشر لهذا النشاط العدائى رداً على أعمالها بالمثل. ولم يذكر المتحدث ان الشيوعية هدامة ومخربة للحضارات وتعادى القومية.

وخصص كونابيف جانباً كبيراً من حديثه لعرض المشاكل الاقتصادية فى الدول المتقدمة وانتقد سياسة الاستعمار الجديد التى تتبعها دول السوق الأوروبية المشتركة مع الدول النامية، وبيّن خصائص المعونات السوفييتية لهذه الدول، وهى المعونات "التى لا ينتظر الاتحاد السوفييتى من ورائها أية مصلحة"(١٧).

ونود ان نذكر هنا — رداً على مزاعم كونابيف — ان الساسة السوفييت يوجهون النقد اللاذع الى المعونات الاقتصادية التى تقدمها الدول الغربية الى الدول النامية وينتقدون أيضاً حجم تلك المعونات. ولكنهم فى نفس الوقت يتجنبون بمهارة فائقة ان يقارنوها بما

---

(١٥) نفس المرجع السابق.
(١٦) نفس المرجع السابق.
(١٧) نفس المرجع السابق.

يقدمه الاتحاد السوفييتى نفسه الى الدول بعينها . ان أحد المراجع السوفييتية يعترف بأن مقدار ما قدمته ألمانيا الغربية من معونات الى الدول الافريقية فيما بين ١٩٦١ حتى ١٩٦٧ ، على أساس اتفاقات ثنائية ، قد بلغت نسبته ٢٠ بالمئة من مجموع ما قدمته هذه الدولة (ألمانيا الغربية) للدول المتخلفة . فبلغ ما قدمته عام ١٩٦٥ وحده لدول أفريقيا الوسطى ١٦٨٠ مليون مارك(١٨)، بينما لم يشر هذا المرجع الى المعونة التى قدمها الاتحاد السوفييتى لتلك الدول والتى تشدق كوناييف بأنها معونة منزهة عن الأغراض، لا يرجو الاتحاد السوفييتى من ورائها نفعاً ولا مصلحة، وآثر السكوت عنها وعن مقدارها .

ورداً على حديث كوناييف الذى أشار فيه الى " ان المعونة السوفييتية منزهة عن الأغراض "، فان أحداً لا يجهل ما يجرى فى الجمهوريات الأربع عشر غير الروسية التى تخضع للحكم السوفييتى ، وكذلك فى الدول الشيوعية الأخرى التى تدور فى فلك موسكو. ان أحداً لا يجهل ما يدور فى هذه البلاد من امتصاص لثرواتها بحجة " التوجيه التخصصى " أو " التعاون العملى " أو " تقسيم العمل الاشتراكى " . ولقد قال جين اى ، وزير خارجية الصين الشعبية فى عام ١٩٦٣ فى خطاب له ، مشيراً الى سياسة الكرملين :

ان رجال الادارة السوفييتية — بتظاهرهم على العمل على تقسيم العمل الدولى بالتوجيه التخصصى — هم فى الواقع ينطلقون من زاوية تحقيق المصالح الخاصة لبلادهم ويطالبون بوحدة من جانب واحد بان تذعن الدول الشقيقة لمطالبهم . وهم ينتهكون بذلك أشد الانتهاك استقلال هذه الدول وحقوقها فى السيادة الوطنية ورعاية مصالح شعوبها. وهذا هو التعصب القومى والانانية القومية بمعناها الكامل(١٩) .

والجميع يعرفون تلك الحقيقة المرة التى تتمثل فى ان الدول الاشتراكية التى تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى فى نزاع شديد معه، ويسيطر عليها قلق دائم خصوصاً بعد انشاء السوق المشتركة لدول اوروبا الشرقية (الكوميكون) بايعاز من موسكو لتنفيذ سياسة اقتصادية معينة ترمى الى رعاية مصالح الاتحاد السوفييتى فقط دون غيره من الدول المشتركة فيه . ان عدم انضمام يوغسلافيا الشيوعية الى الكوميكون واصرارها على البقاء فى خارجة برغم أنواع الضغط السوفييتية المختلفة عليها، لأكبر دليل على ذلك الخلاف الحاد الناشب بين الدول الاشتراكية .

---

(١٨) "شعوب آسيا وأفريقيا"، العدد الثانى لعام ١٩٦٩، موسكو، ص ٥٢ .
(١٩) إذاعة بكين فى ١٩٦٣/٩/٩ .

ثم أفاض كوناييف فى الهجوم على مواقف "الحكومات الصورية" عند تعرضه للحديث عن الروابط القائمة بين دول أوروبا الغربية وبين بعض دول أفريقيا. وفى رأيه فان الاستعماريين يدفعون تلك الدول دفعاً — وفى فرصة ممكنة — لكى يعقدوا معهم إتفاقيات غير عادلة، مستغلين فى ذلك الصعوبات الاقتصادية التى تواجهها هذه الدول الافريقية الناشئة التى تقوم فيها "حكومات صورية"(٢٠).

ولا يستبعد فعلا وجود إتفاقيات اقتصادية غير عادلة بين الدول الصناعية المتقدمة من جهة، وبين الدول النامية فى آسيا وأفريقيا من جهة أخرى. ولكن حكومات الدول النامية تتمتع بحق فسخ تلك الاتفاقات الثنائية إذا رأت انها تتعارض مع مصالحها الوطنية. وهذا حق له أهمية بالغة. وفضلا عن ذلك فان الدول الديموقراطية الغربية لا تبذل أى جهد على الاطلاق لسحب هذا الحق من يد من يجنح الى ممارسته. وهذا الموقف أهم من وجود القيود والشروط. وليس للاتحاد السوفييتى ان ينبت بنبت شفة فى هذا الأمر، ولا سيما أنه الدولة المعتدية على حقوق الشعوب منذ قيامه على انقاض روسيا القيصرية منذ خمسين سنة، وهو أيضاً الذى أرغم تلك الدول المجاورة له — التى اعتبرته صديقاً — على توقيع إتفاقيات غير عادلة. وأكبر مثل ما حدث فى تشيكوسلوفاكيا بعد احتلالها بقوات حلف وارسو فى أغسطس (آب) ١٩٦٨. ولقد وقعت تشيكوسلوفاكيا برغم إرادة التشيكيين إتفاقيات مختلفة مع موسكو، هى أكبر دليل على العلاقات الدولية غير المتكافئة.

وبعد كوناييف، جاء الدور فى الكلام على يوسف السباعى، السكرتير العام لمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية والآسيوية، فتحدث متمنياً التوفيق والنجاح للمشتركين فى اجتماعيات المؤتمر. ثم وقف يشيد بالشعوب التى نهضت ببلادها بعد ثورة اكتوبر (تشرين الأول) الموفقة المظفرة فى نضالها الذى قادته ضد الامبريالية والاستعمار، ويشيد بتحررها وتقريرها مصيرها بنفسها(٢١).

وفى الحقيقة كان زعماء ثورة اكتوبر (تشرين الأول) قد قطعوا على أنفسهم بالفعل وعوداً كثيرة مثيرة للشعوب المسلمة التى قاست الأمرين تحت حكم روسيا القيصرية. وكان من تلك الوعود الخلابة ما أعلنه الشيوعيون عن عزمهم على الاستجابة للمسلمين وعلى تفهم مطالبهم، "واعلان حقوق الشعوب فى روسيا" الذى صدر فى نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٧، وهو الذى نص على "مساواة شعوب روسيا فى الحقوق وفى السيادة الوطنية

---

(٢٠) قازاقستانسقايا برافدا، ٢/١٠/١٩٦٩.
(٢١) نفس المرجع السابق.

وحق كل شعب فى تقرير مصيره بنفسه وحقه فى الانفصال وانشاء دولته المستقلة "(٢٢). كما ورد فى الاعلان عبارات تقول: " يا من داس القياصرة الروس المستبدون على أديانكم وهدموا جوامعكم ومعابدكم وحرموا عليكم صلواتكم... أعيدوا اليوم بناءها وبناء حياتكم القومية بحرية وكما تشاءون "(٢٣). ولكن هذه الوعود جميعها تبخرت وصارت خيالا بمجرد ان استتب الأمر للسادة البلشفيك الجدد وتمكنوا من السيطرة على زمام الأمور فى البلاد. وتغيرت لهجتهم من اطلاق الكلمات المعسولة الى اطلاق المدافع. وأخذت الجمهوريات المستقلة الناشئة التى أسسها المسلمون تسقط تباعاً فى أيدى الغزاة البلاشفة.

هذا هو لينين، الذى وقف المتحدثون فى آلما آتا واحداً تلو الآخر يكيلون له المديح ويهتفون له فى صوت واحد. لقد وعد المسلمين فى روسيا فى بادىء الأمر بالحرية والاستقلال، ولكن ما ان تمكن من السلطة حتى تنكر لوعوده وتغيرت مبادئه الى النقيض، فلا حرية ولا استقلال، وحتى الاستقلال الثقافى الذاتى لا حق لهم فيه.

وعندما انعقد المؤتمر العاشر للحزب (البلشفى) الشيوعى فى روسيا، تقدم زعماء الشيوعيين المسلمين فى روسيا يطالبون بالاستقلال الداخلى وبالاستقلال الثقافى الوطنى. وجاء الرد على مطالبهم فى تقرير طويل قرأه ستالين على الحاضرين فى المؤتمر، وكان هذا التقرير يعبر عن وجهة نظر اللجنة المركزية للحزب فى مسائل القوميات. وقال ستالين كلاماً عجيباً لا يتفق مع الحقيقة على الاطلاق، وهو ان " الانفصال ليس من حق شعوب جمهورية روسيا الاشتراكية السوفييتية "(٢٤). وخشية ضياع البقية الباقية مما فى أيديهم، تقدم سلطان غالييف ونخبة من زملائه من زعماء الشيوعيين التتار باقتراح جديد طالبوا فيه موسكو بالاعتراف بحق الشعوب الاسلامية فى الاستقلال الثقافى الوطنى على الأقل. وكان هدفهم من وراء هذا الاقتراح هو احباط الخطة الموسكوفية المعروفة لتحطيم وحدة الشعوب الاسلامية الخاضعة لروسيا. الا ان هذه المحاولات التى بذلها زعماء الشيوعيين المسلمين ذهبت جميعها ادراج الرياح وانتهت بالفشل الذريع. إذ ان ستالين ــ عملا بتوجيهات لينين وتعاليمه ــ رأى ان الاستقلال الثقافى الوطنى من عمل اعداء الثورة ويؤدى الى تنشيط الأقليمية وتنميتها، وان تقرير هذه الشعوب لمصيرها وحصولها على استقلالها الوطنى

---

(٢٢) "او براز وفانيه س. س. س. ر."، ص ٢٠.
(٢٣) نفس المرجع السابق، ص ٢١/٢٢.
(٢٤) التقرير الإختزالى للمؤتمر العاشر للحزب الشيوعى (البلشفى) الروسى، موسكو، عام ١٩٦٣، ص ١٨٦/١٨٧.

الداخلى والاستقلال الثقافى لا يعنى سوى العمل " بمذهب بوند(٢٥)، ونحن قد قطعنا كل علاقة مع شعارات مبهمة تؤدى الى تقرير المصير ، فلا حاجة بنا الى إعادة ذكرها "(٢٦)

ولقد دفع سلطان غالييف وزملاؤه حياتهم ثمناً لتلك المطالبة .

ولسنا هنا نرى فائدة من ان نتناول بالتفصيل محتويات التقارير التى قرأت فى اجتماعات آلما آتا. ثم اننا حتى لو أردنا ذلك، لاعترضتنا امكانياتنا المادية. ومع ذلك فاننا نستطيع ان نقطع بأن هذه التقارير والكلمات التى ألقيت فى المؤتمر لم تزد عن كونها تعبير عما تحتويه نفوسهم من قلق . وبرغم ذلك فسوف نتناول بعض أمثلة من هذه التقارير بالاشارة العابرة .

كان من بين المشتركين فى اجتماع آلما آتا من وفد الجمهورية العربية المتحدة، ضياء الدين داود، عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى . وجاء فيما قال :

لا أحد ممن يبحثون فى التقدم الاشتراكى وحركة التحرير الوطنى فى هذه المرحلة من التاريخ يمكنه القيام بعمل دون الرجوع الى تعاليم لينين والاطلاع على مؤلفاته ذات الشهرة العالمية . إذ بها فقط يمكنه ان يتعرف على النظم الاستعمارية ويحلل تراكيبها ويلمس معالمها كما يكشف عن خبايا طبيعتها ومحتواها(٢٧) .

ولقد كتب لينين فى الواقع الكثير عن الاستعمار، واستطاع بنجاح ان يكشف عن النواحى السلبية لهذا النظام . وهذا فقط هو كل ما فعله . ولكن اللهجة التى تحدث بها لينين والتى يتحدث بها الزعماء الشيوعيين الحاليين، ليست هى اللهجة التى تتحدث بها شعوب الشرق السوفييتى التى وقعت فى أسر الحكم الشيوعى، ولا هى لهجة الشرق الاسلامى أو الشعوب النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، والتى يريد الشيوعيون ان يضعوها تحت توجيههم وسيطرتهم . ان ما تطلقه أبواق دعايتهم من عبارات كلها ذات طبيعة واحدة، ولكنها معانيها تختلف تماماً عن ظاهر ما يدعون إليه. وهنا تكمن الأسرار التى عجز الاشتراكى العربى ضياء الدين داود عن إدراكها وسار يردد ما تطلقه أبواق الدعاية الشيوعية بعلمه أو بدونه . وضياء الدين داود الذى وقف فى مؤتمر آلما آتا يندد بالاستعمار وأساليبه، نسى أو تناسى أنه فى عاصمة احدى المستعمرات الروسية الكثيرة،

---

(٢٥) يقصد باصطلاح بوند فى الأدب الشيوعى (الرابطة العامة للعمال اليهود فى بلاد ليتوانيا وبولندا وروسيا) المؤلفة عام ١٨٩٧ .

(٢٦) تقرير المؤتمر العاشر السابق ذكره، ص ٢١٣ .

(٢٧) قازاقستانسقايا برافدا، ١٩٦٩/١٠/٣. — ملحوظة: هذا النص هو ترجمة من اللغة الروسية الى العربية، ولهذا فهو لا يطابق النص الأصلى فى اللغة العربية ولكنه يعطى المعنى الأصلى بدقة .

ولم يشر الى الاستعمار الشيوعى السوفييتى الذى أسسه لينين نفسه ــ الذى امتدحه وأشاد بمؤلفاته . وعلى كل حال فان مشكلة الاستعمار السوفييتى نوقشت مراراً فى أكبر هيئة دولية، وهى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

وكان خروشتشوف، رئيس الوزراء السابق للاتحاد السوفييتى، قد اشترك فى اجتماعات الدورة الخامسة عشر للأمم المتحدة المنعقدة فى عام ١٩٦٠، واقترح ان تصدر الأمم المتحدة " اعلاناً بمنح الاستقلال لجميع المستعمرات الحالية فى العالم وتحرير شعوبها "(٢٨). وحاز الاقتراح بلا شك على استحسان جميع الأعضاء. ثم شكلت فى الدورة التالية للجمعية العامة لجنة فرعية سميت " لجنة السبعة عشر "، وذلك لدراسة الاقتراح وتقديم تقرير خاص الى الجمعية العامة توطئه لاصدار ذلك الاعلان المقترح. وفى شهر سبتمبر (أيلول) ١٩٦٢، نوقش نص هذا الاعلان فى اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة. وانتهت المناقشات الى خلاف حاد بين الأعضاء.

وبناء على الاحصاءات التى أعلنتها الامانة العامة للأمم المتحدة بهذه المناسبة، فان كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وبلجيكا وهولندا، كدول استعمارية، قد اعترفت فى الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٦٢ باستقلال ٤٤ مستعمرة سابقة لها يبلغ مجموع مساحتها ٢٠ مليون كيلو متر مربع ويعيش فيها ٨٤٠ مليون نسمة. بينما أظهرت الاحصائيات نفسها ان الاتحاد السوفييتى قد احتل مساحة قدرها ٢٦٣٦٤٠ ميل مربع بسكانها البالغ عددهم ٢٢٧٥٠٠٠٠ نسمة، وذلك بخلاف دول أوروبا الشرقية السبعة التى يفرض عليها سلطانه ويكبلها باغلاله الشيوعية التى لا يوجد أدنى فارق بينها وبين أسوأ صور للاستعمار.

وفى أثناء المناقشات التى دارت فى الجمعية العامة للأمم المتحدة حول التقرير الذى أعدته لجنة " السبعة عشر "، ظهرت مشكلة سياسية جديدة خلاصتها هى: هل الاتحاد السوفييتى بما يطبقه من أنواع الاحتلال دولة استعمارية أم لا ؟ وهل الاعلان الذى اقترحه خروشتشوف يتضمن الأراضى المحتلة التى تقع تحت سيطرة الحكم السوفييتى ام لا يتضمنها ؟

وفى سياق تلك المناقشات قال المندوب الكندى ماك كوارى:

> اذا كنا قد تعرضنا لموضوع الاستعمار فعلينا ان نعود الى التاريخ. . . فان الاستعمار لم ينتشر عبر المحيطات فحسب، بل عن طريق البر أيضاً. ونحن نشهد الآن بين " موجات " الاستعمار فى عصرنا الحاضر، الاستعمار السوفييتى(٢٩). ان

---

(٢٨) كومونست تاجيكستانا، ١٩٦٠/٩/٢٥، دوشنبه.

(٢٩) "ناشيه اوبشتيشه ديلو" (عمل جمعيتنا)، العدد ١ عام ١٩٦٣، ص ١٦١، ميونيخ.

٨٤٠ مليون نسمة من ٤٤ دولة تحررت من تبعية بريطانيا وهولندا وفرنسا وبلجيكا تطبيقاً لمبادىء الحرية التى اقرتها واعلنتها الأمم المتحدة وأوصت بالعمل بها. فكانت النتيجة ان نالت هذه الدول الأربع والأربعون جميعها استقلالها. والآن يا ترى، ما هو نصيب تلك الشعوب المغلوبة على أمرها التى تتبع الامبراطورية السوفييتية؟ ان ٩٦ مليون نسمة من عناصر غير روسية فى المستعمرات السوفييتية محرومة من حق تقرير المصير، وفى الوقت نفسه يعلو صوت الاتحاد السوفييتى صارخاً من أجل السلام والحرية والاستقلال (٣٠).

ثم تحدث المندوب البريطانى، سير باتريك دين، مؤيداً ما قاله زميله الكندى:

ان ١٦ مستعمرة بريطانية سابقة يبلغ تعداد سكانها ٣٦٠ مليون نسمة قد حصلت على استقلالها خلال الستة عشر سنوات المنصرمة وهى نفس المدة التى انقضت على انشاء الأمم المتحدة (٣١)... ان بريطانيا العظمى حينما احتلت جزيرة سيلان فى عام ١٨١٥، قامت روسيا فى نفس الوقت بالاستيلاء على آذربيجان. وتقدم الزمن واستقلت سيلان فى عام ١٩٤٧. افتسمحون لنا إذن أن نسألكم متى سنرى آذربيجان مستقلة؟ (٣٢).

وأشار المتحدث البريطانى بعد ذلك الى أنه فى وقت ان دخلت بلاد أفريقية مثل نيجيريا وغانا ولاجوس وساحل العاج فى حكم بريطانيا فى القرن التاسع عشر، كانت تركستان المستقلة تواجه نفس المصير الذى لاقته آذربيجان. واليوم أصبحت جميع المستعمرات البريطانية السابقة المشار إليها دولا حرة مستقلة ذات سيادة. فما هو الجديد عن استقلال الجمهوريات السوفييتية فى آسيا الوسطى؟ (٣٣) ثم تعرض المندوب البريطانى بعد ذلك فى كلامه الى الاعتداءات السوفييتية على استونيا ولاتفيا وليتوانيا وسخالين الجنوبية وجزر كوريل والتى ضمت الى الاتحاد السوفييتى بقوة السلاح (٣٤).

وتعقيباً على كلام ضياء الدين داود الاشتراكى العربى وزملائه الذين أطالوا وكرروا فى الحديث عن الانجازات الباهرة فى قازاخستان وغيرها من جمهوريات آسيا الوسطى، فاننا نكتفى هنا بالاشارة الى النكبات والكوارث التى حلت بهذه البلاد نتيجة للإغارات

---

(٣٠) نفس المرجع السابق.
(٣١) نفس المرجع السابق.
(٣٢) نفس المرجع السابق.
(٣٣) نفس المرجع السابق.
(٣٤) نفس المرجع السابق.

السلافية المتكررة والمتواصلة عليها . لقد هبطت نسبة القازاق — وهم من الترك — من عام ١٩٣٩ الى ١٩٥٩ من ٣٨٪ الى ٢٩,٦٪، كما هبطت نسبة الازبك من ٦٥٪ الى ٦٢٪ وبين القرغيز من ٥٢٪ الى ٤٠٪ وبين التاجيك من ٦٠٪ الى ٥٣٪(٣٥).

وتحدث ا. ا. اسكندروف، وكيل معهد حركة العمال الدولية، التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، فأشار الى ان " اتحاد القوى التقدمية العالمية وحركات التحرير الوطنى مع القوى الديموقراطية المعاصرة الأخرى اتحاداً متيناً لا تنفصم عراه هو أمر ضرورى"(٣٦). وفى رأيه ان " مثل هذا الاتحاد هو أحد العوامل التى تضمن تقدم الدول حديثة الاستقلال ومواصلتها السير فى طريق تحررها ونهضتها الاشتراكية "(٣٧).

وليس من الصعب على المرء ان يدرك ما يقصده ا. ا. اسكندروف من عبارة " القوى الديموقراطية المعاصرة الأخرى". ان هذا الأسلوب ليس إلا تكتيكاً تنفذه القيادة الشيوعية ويرمى الى ان يصبح لها حق ابداء الرأى فى مشاكل الشيوعية السياسية، الداخلية والخارجية، وان يصبح لها الدور الأكبر فى وضع حلولها، وبالتالى فرض توجيهاتها . . . وهنا يكمن السر الرهيب فى الاستراتيجية السوفييتية والذى من ورائه تهدف روسيا الى فرض نفوذها وسيطرتها على الشعوب الأخرى بحجة تحريرها .

---

(٣٥) مجموع إحصائيات السكان فى عام ١٩٥٩، ص ٢٠٢/٢٠٤/٢٠٦/٢٠٨ .
(٣٦) قازاقستانسقايا برافدا، ١٩٦٩/١٠/٧ .
(٣٧) نفس المرجع السابق .

الاستعمار الروسى:
الامبراطوريتان الروسيتان
القيصرية والسوفييتية

بقلم: فلودزيميريتس باشكوفيتس

قبل أن نشرع فى تحليل الاستعمار الروسى بوجهيه القيصرى والسوفييتى، فإننا ينبغى أن نتأكد من وجود هذا الاستعمار كحقيقة تاريخية. ومن المعروف عن الامبراطوريات العظمى فى العصر الحديث ان سلطانها قد إمتد عبر البحار الى مستعمرات تقع فى قارات غير أوروبا، حيث توجد معظم القوى الاستعمارية نفسها. والقول بأن وجود بحار تفصل بين المستعمرات وبين القوى الاستعمارية أمر ضرورى وعامل جوهرى فى تحديد أوصاف "الامبراطورية الاستعمارية" قول خاطىء لا يستند إلى عقل ولا منطق(١).

إن التعريف الوحيد الصحيح للمستعمرة – بالمعنى السياسى – هو إنها وحدة سياسة تُتخذ القرارات السياسية الهامة بشأنها فى مكان آخر بواسطة حكومة أجنبية، وغالباً ما تكون هذه القرارات فى صالح قوى الاستعمار وليست فى صالح الشعب المستعمر، سواء كانت هذه القوى الاستعمارية موجودة فى موطنها أو فى المستعمرة. ولننظر الآن فيما إذا كان هذا التعريف يسرى على الأقاليم والأقطار التى إشتملت عليها الامبراطوريتان الروسيتان القيصرية والسوفييتية.

الامبراطورية الروسية المبكرة

ان تاريخ روسيا منذ ان تم طرد التتار منها فى عام ١٤٨٠ وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان توسعاً مستمراً، تارة بقوة السلاح، وتارة بغيره. ولقد بدأ الطور الأول من هذا التاريخ التوسعى بهبة غراندوقية موسكو القوية فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر التى أستمرت حتى عام ١٥٥٢. وفى هذه المرحلة استطاع امراء موسكو ان يضموا إليهم المقاطعات الروسية المجاورة، ويبسطوا سلطانهم عليها. ولكنه لما كانت الدولة الروسية قد تأسست أصلا على هذه الامارات والمقاطعات الروسية، فلا يمكن اعتبار هذا الأمر عملا استعمارياً.

---

(١) صمويل فان فالكنبورج، "أسس الجغرافيا السياسية"، لندن، بيتمان، ١٩٤٠.

وفى عام ١٥٥٢ بدأت المرحلة أو التطور الثانى، وذلك عندما قام الروس بغزو خانية التتار المسلمين الواقعة على الفولجا الوسطى واستولوا على عاصمتهم قازان. وهكذا بدأ عصر الفتوحات الاستعمارية الروسية، وتسلط الحكم الروسى على الشعوب غير الروسية. وبعد ذلك فتحت خانية ثانية هى استراخان على الفولجا الوسطى، وكان ذلك فى عام ١٥٥٤—١٥٥٦. وضمت قازان واستراخان الى الدولة القيصرية، وبذلك أصبح لروسيا طريقاً ومنفذاً الى بلاد القوقاز وبحر قزوين، ولم يبق من خانيات التتار المسلمين على أرض روسيا الأوروبية سوى القرم وكوبان. وبذلك بدأت هذه البلاد تفقد طابعها وشخصيتها القومية الأصلية.

وفى نفس الوقت حدث توسع مماثل فى اتجاه الشمال والشمال الشرقى. وتم الاستيلاء على كل الغابة الفنلندية فى الشمال، واكتساح القبائل التى كانت تعيش فى سهول التندرا فى الشمال الشرقى. ومما هو جدير بالذكر ان الانجليز كانوا قد وصلوا الى المحيط القطبى الشمالى فى عام ١٤٨٧ واكتشفوا الطريق البحرى حول الرأس الشمالى الى ارخانجيلسك على البحر الأبيض الشمالى عام ١٥٥٣.

وكان من آثار فتح قازان المباشرة هو اتاحة الفرصة للجيوش الروسية للاندفاع سريعاً نحو الشرق. وفى عام ١٥٥٥ فتح اقليم غرب سيبيريا وتحول "ياغادير" الخان المسلم لهذا الاقليم الى تابع لموسكو يدفع لها الجزية سنوياً. وفى عام ١٥٥٨ قامت اسرة ستروجانوف، وهى اسرة من التجار اشتهروا بعدوانيتهم وبطشهم، فاستولوا على الأراضى الواقعة على نهر كاما شرقى موسكو، ثم بدأوا فى عام ١٥٨١ فى التوغل المستمر فى أراضى سيبيريا الشاسعة منشئين شبكة من المراكز التجارية فى هذه الأراضى. ثم تطلعوا الى السهول الفسيحة الممتدة على كلا جانبى جبال الأورال. وفى الفترة من ١٥٨١—١٥٨٤ قام احد المغامرين من هذه الأسرة وهو يرماك تيموفييفيتش بفتح سيبريا الغربية مستخدماً الأسلحة النارية ضد القبائل التى لم يزد سلاحها عن الحراب والسهام. واستطاع ان يصل الى نهرى اوب وايرتيس. وهناك أسست بعد ذلك فى عام ١٥٨٧ مدينة توبولسك عند ملتقى نهرى توبول وايرتيس (٢).

وبطول القرن السابع عشر أخذت الدولة الموسكوفية تمتد وتتسع وتثبت املاكها فى سيبيريا وتطارد القبائل المتفرقة الضعيفة التسليح وتشيد الحصون والقلاع وتفرض الاتاوات

(٢) ب. د. جريكوف وغيره، مؤلفو "استوريا س.س.س.ر." (تاريخ الاتحاد السوفييتى) فى مجلدين، موسكو، جوسودارستفنوى سوتسياليتو—اكونوميتشيسكوى ايزداتيلستفو، ١٩٤٠/٣٩، مجلد ١، ص ٣٦٨ إلى ٣٦٩، ٣٩٦—٤٠٠.

والضرائب على أهالى الاقاليم الذين غلبوا على أمرهم. وفى عام ١٦٠٤ قام المستكشفون الروس بانشاء مدينة اومسك على نهر توما ثم وصلوا الى نهر ينيسى عام ١٦١٨، ثم نهر ليثا عام ١٦٢٨ وهناك أسسوا مدينة ياكوتسك فى عام ١٦٣٢. وأمام كل هذا التوسع فى سيبيريا أنشأت حكومة موسكو ادارة خاصة لشئون سيبيريا فى عام ١٦٣٧. ولم تكد هذه ان أصبحت مشهورة بفسادها وأساليبها التعسفية الظالمة التى تسببت فى فرار عدد كبير من شعوب الأقاليم السيبيرية الى الصين وتركوا أراضيهم وديارهم لقمة سائغة للمستعمرين الروس.

وفى عام ١٦٤٤. وصل المستكشفين الروس الى كل من المحيط القطبى الشمالى عند كاليما، والى الحدود الصينية فى الجنوب على نهر أمور. وفى عام ١٦٤٩ كانوا قد عبروا القارة الى أقصى شرقها حتى ساحل المحيط الهادى حيث أسسوا مدينة اوخوتسك. وفى ١٦٥٢ أسست مدينة ايركوتسك على بحيرة بايكال. ثم مدينة البازين عام ١٦٦٥ على نهر أمور. وانتهت مرحلة الاستكشاف هذه عام ١٦٩٧ باكتشاف اتلاسوف لشبه جزيرة كامتشاتكا (٣).

وكان هذا الانتشار والتغلغل سريعاً وحشياً لا هدف له غير الرغبة الجامحة فى البطش وخلا من أى صفة، حتى لقد فاق وحشية وفظاعة الغزو الاسبانى للمكسيك وبيرو. وبلغت نتائجه حد ابادة شعوب بأكملها وتقويض كيانها ووجودها. ولقد استمر تدفق المستعمرين الروس على الأراضى المحدودة الصالحة للزراعة فى هذه الأقاليم واستيطانهم فيها. ولكن حتى ذلك الوقت لم تكن هناك علاقة سياسية ذات طابع استعمارى، ولكنها كانت علاقة تنمو بالتدريج على أساس من المساواة داخل حدود وحدة أكبر. وهو الأمر الذى يمكن تشبيهه بما حدث عند تعمير الاقاليم الغربية فى أمريكا الشمالية، أو بالنحو الداخلى فى البرازيل.

وهكذا بحلول منتصف القرن السابع عشر كان الروس قد سيطروا على أراضى تنطبق تقريباً على الأراضى التى تشغلها حالياً جمهورية روسيا الاشتراكية الفدرالية السوفييتية. وبعد ذلك بوقت قصير أضيفت كامتشاتكا وما حولها تجاه الشمال الشرقى، ولم يبق سوى اقليم نهر أمور ومجموعة جزر سخالين وكوريل. اما فى جهة الجنوب الشرقى والحدود الجنوبية الطويلة الممتدة من نهر أمور الى جبال الاورال، فقد كانت تماماً كما هى الآن. ولم يكن اقليم القوقاز الشمالى قد دخل فى ذلك الوقت بعد تحت سيطرة حكومة القيصر، ولكنها فرضت سيطرتها على أجزاء من جمهورية القازاق وأوكرانيا وكاريليا الحالية عن

---

(٣) المرجع السابق، مجلد ١، ص ٥٧٨–٥٨٣.

طريق فرض جزية سنوية عليها . ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن هناك أى شكل من أشكال الاستعمار بالمعنى السياسى ، لأن الشعوب المقهورة كانت اما قد أبيدت أو شتت أو طردت من ديارها وفقدت كيانها وشخصيتها القومية .

الامبراطورية الاستعمارية القيصرية

يُعرف بطرس الأكبر عادة بأنه القيصر الذى حول اتجاه التوسع الروسى من الميدان الآسيوى الى الميدان الأوروبى . ولكن هذا الدور فى الواقع بدأ فى عهد الكسيس الأول (١٦١٥–١٦٧٦). فبمجرد ان وصل التوسع الروسى عبر سيبيريا الى سواحل المحيط الهادى فى منتصف القرن السابع عشر، حتى أخذت قوة اندفاعه تهدأ الى ان وجدت فرصتها الجديدة فى أوكرانيا . ولم يستطيع الليتوانيون والبولنديون، الذين طالما وقفوا مانعاً حصيناً فى وجه التوسع الروسى تجاهى الجنوب والغرب، لم يستطيعوا هذه المرة ان يفعلوا شيئاً للوقوف الى جانب الأوكرانيين والبيلوروسيين ومساندتهم ضد الاطماع الروسية . وبهذا لم يستطع أى من هذه الشعوب ان يحتفظ باستقلاله . وأخذت أوكرانيا الخطوة الأولى نحو الانضمام الى روسيا فى اتفاقية بيرياسلاف فى مارس (آذار) ١٦٥٤. وهى المعاهدة التى قبلت فيها أوكرانيا الشرقية فرض الحماية الروسية عليها، ولكنها احتفظت باستقلال داخلى، ويحق ان تتولى بنفسها شئونها الخارجية، وان كان ذلك تحت اشراف روسيا . وكذلك كان من حق أوكرانيا الشرقية ان تحتفظ بجيش خاص . ونصت تلك الاتفاقية على تعيين رئيس الدولة بالانتخاب على ان تبلغ نتيجة الانتخاب النهائية لموسكو. ولكن هذه النصوص التى يحيط بها الغموض قد اتاحت لروسيا عللا للتدخل فى شئون أوكرانيا الداخلية كلما عنَّ لها ذلك . وأدت فى الواقع الى ابطال سلطات مكتب رئاسة الدولة . ثم فى إتفاقية بين روسيا وبولندا المسماة باتفاقية "اندروسوفو" عام ١٦٦٧ قسمت أوكرانيا بين كل من روسيا وبولندا(٤)، وكان من نصيب روسيا فيها مدينة كييف والاقاليم المحيطة بها والتى ضمت عام ١٦٨٠ نهائياً الى روسيا . وبذلك صارت أوكرانيا

---

(٤) انسيكلوبيديا اوكراينوزنافستفا (دائرة المعارف الأوكرانية)، ميونيخ ونيويورك: ناوكوفى توفاريستفوايمينى شيفتشينكا، ١٩٤٩، ص ٤٤٨، ٤٥٩–٤٦٠ .

الشرقية أول مستعمرة روسية، ومعها فى نفس الوقت جزء من بيلوروسيا المحيط بمدينة سمولنسك(٥).

والمؤرخون الروس الذين يزعمون ان أوكرانيا لم تكن فى يوم ما مستعمرة روسية وانها كانت دائماً جزءاً لا يتجزأ من الأمة الروسية، يتجاهلون الحقيقة ان حكومة القيصر سارعت فور ضم أوكرانيا الى إزالة كل مظاهر ومقومات الحياة الثقافية والدينية واللغوية والاقتصادية الأوكرانية. ان عملية ضم أوكرانيا الشرقية تحمل من الناحية الشكلية، طابع الاتحاد الاختيارى لشعبين شقيقين والامتزاج وبين ثقافتيهما. ولكن المحاولات الخشنة التى لم تتوقف لما يزيد عن ٢٥٠ سنة لترويس أوكرانيا، والتى رفضها الأوكرانيون وقاوموها بمختلف الطرق والوسائل، تارة بالمقاومة السلبية وتارة بالمواقف الدموية، لهى دليل الاختلاف البين فى المقومات القومية لكل من الشعبين(٦). ان وجود جمهورية أوكرانيا الاشتراكية الفدرالية السوفييتية الآن كوحدة سياسية وثقافية قائمة بذاتها، لدليل آخر حى وقوى على فشل السياسة القيصرية حيال أوكرانيا. ومثل ما حدث فى أوكرانيا حدث كذلك فى بيلوروسيا.

ان عهد بطرس الأكبر (١٦٨٩–١٧٢٥) يعرف لا بالتوسع وبسط رقعة الأرض وحسب، وانما بتثبيت حكمه وتوطيده على تلك الأرض داخل حدودها. ونحن لا يهمنا من التطور الداخلى شيئاً الا فى حدود ما له علاقة بالاستغلال الاستعمارى الروسى لأوكرانيا الشرقية، والذى يلاحظ أنه هدأ نوعاً ما وخفت حدته فى ذلك العهد، فى حين أنه فى خارجها قد استمر نشاطه التوسعى واستولى على ازوف وان فشل فى بسط سيطرته على بحر البلطيق. ثم هزم القوة السويدية واحتل كاريليا وانجيريا واستونيا وشمال لاتفيا (ليفونيا)، وحصل على صك ملكيتها فى معاهدة نيستاد عام ١٧٢١، ثم أسس مدينة سان بيترسبورج واسكنها بالروس بالقوة. ولكن القياصرة الروس كانوا قد أبقوا على دول شمال البلطيق فى وضع المستعمرات – وهو الأمر الذى انعكس فى صورة استقلال هذه الدول فى فترة ما بين الحربين العالميتين ثم اوضاعها الحالية كجمهوريات سوفييتية لها كيانها الخاص – لقد قامت الجيوش القيصرية حين احتلت أراضى هذه البلاد بكل ما تعودته من قتل ونهب وسلب وابادة، ولكن ارتباطات هذه البلاد بغرب أوروبا وثقافتها الراقية، انقذتها من الضياع الكامل تحت اقدام الروس، وهو نفس ما حدث بعد ذلك فى بولندا وفنلندا.

---

(٥) ايستوريا س.س.س.ر.، مجلد ١، ص ٥٥٩.

(٦) فلودزيميرز باسكوفسكى، اوزرودىل اوبادكواى فيلكوزى (أسباب التطور والخضوع "فى بولندا")، وارسو، ف. هوسيك، ١٩٣٥، ص ٦٠–٧٤، ١٠١–١٠٩.

وقبل ان نعود الى الحديث عن النشاط الامبريالى لروسيا القيصرية فى الأراضى الواقعة فى الجنوب والشرق، سوف نلقى نظرة على ما أحرزه هذا النشاط من نجاح فى الأراضى الواقعة فى الغرب. فقد استطاعت روسيا القيصرية فى عام ١٧٤٠ ان تضم أوكرانيا الجنوبية باستثناء المنطقة الساحلية المطلة على البحر الأسود. أما الاقليم الجنوبى الغربى منها (يديسان) فلم ينجحوا فى ضمه الا عام ١٧٩٣ . وحصلت روسيا على نصيب كبير فى التقسيمات الثلاثة للممتلكات البولندية الواقعة فى جهة الغرب من روسيا . ففى التقسيم الأول عام ١٧٧٢ حصلت على أجزاء من بيلوروسيا . وفى التقسيم الثانى عام ١٧٩٣ حصلت على أجزاء اخرى من بيلوروسيا وعلى أوكرانيا الغربية (بودوليا وفولهينيا) . وفى التقسيم الثالث عام ١٧٩٥ حصلت على ليتوانيا وجنوب لاتفيا (كورلاند) . وفى عام ١٨٠٩ أخذت روسيا فنلندا ضمن مستعمراتها وجعلتها غرندوقية مستقلة تحت سيادة التاج القيصرى، اى انها منحتها استقلالا داخلياً . ولما استولى الروس على بولندا نتيجة لهزيمة نابليون فى الحرب ثم سقوطه عام ١٨١٥، فقد منحوها مثل هذا الاستقلال الداخلى الذى حصلت عليه فنلندا . اما بيسارابيا فقد ضمت الى روسيا عام ١٨١٢ . ثم حاول الروس بعد ذلك التغلغل فى أراضى البلقان والوصول الى مضايق البحر الأسود، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من أهلها نجحت فى صدهم واحباط سعيهم . وفى خلال عهد الحكم الروسى لفنلندا كانت أساليب السيطرة الروسية تتغير وتتبدل بين الشدة واللين والقسوة والاعتدال ولكن شيئاً واحداً ظل ثابتاً لم يتغير، الا وهو عزم الروس على ترويس هذه البلاد وفرض اللغة والثقافة الروسية على أهلها . ولكن شعوب هذه البلاد ذات الثقافة العريقة وذات الشخصية القومية الوطيدة استطاعت بنجاح كبير ان تقاوم سياسة الترويس هذه واحتفظت بالفعل بكيانها وشخصيتها القومية الخاصة، بينما لم يستطع أهل ليتوانيا وبيسارابيا مقاومة هذا الضغط وحل بهم نفس المصير الذى آلت إليه شعوب استونيا وأوكرانيا وتحولتا الى مستعمرتين.

ثم نعود الآن الى النشاط الامبريالى لروسيا القيصرية فى الأراضى الواقعة فى الجنوب والشرق . لقد حاولت روسيا عدة مرات ان تغزو منطقة شبه جزيرة القرم، وكانت أولى محاولاتهم فى هذا السبيل هى التى وقعت عام ١٦٧٧، ثم تبعتها محاولات أخرى فى أعوام ١٧٣٦، ١٧٣٨، ١٧٧١ . ولكن تتار القرم استطاعوا ان يصدوا جيوش الروس عن بلادهم فى كل هذه المحاولات . ولكن الحيلة أفلحت حيث لم تفلح القوة، فقد عمد الروس الى الفتنة فأثاروها بين شعب القرم وحرضوا فريقاً من الناس على الخان،

ثم أقنعوه بأن يطلب عونهم، ودخلت جيوشهم الى القرم بحجة اخماد الفتنة . وانتهت الفتنة وزالت أسبابها، ولكن الروس بقوا لا يرحلون عن البلاد . وفى عام ١٧٨٣ أعلنت القيصرة كاترين الثانية مرسوماً بضم القرم رسمياً الى الدولة الروسية(٧). وانتهى أمر شعب القرم الى مثل ما انتهى إليه أمر أخواتهم فى الدين والملة من شعوب التتار المسلمين فى القازان واستراخان ثم لحقهم فى نفس المصير شعوب أذربيجان وتركستان، وسارت عليهم سياسة استعمارية ظالمة قوامها الاضطهاد الدينى وارغامهم على تغيير دينهم، وعلى السلب والنهب والاستغلال الاقتصادى ثم على الترويس الثقافى.

وبضم بولندا الى روسيا الذى تم عام ١٨١٥، بلغت الامبراطورية القيصرية نهاية توسعاتها فى جهة الغرب . اما فى جهة الشرق فقد كانت هناك ثلاثة مناطق لم تكن قد خضعت بعد لسيطرة الروس نهائياً، وهى القوقاز وتركستان ومقاطعة شرقى البازين على نهر أمور. وكان هناك تقدم ملموس فى مناطق الاستبس بين نهر اورال وبحر آرال، وكذلك فى الاراضى الواقعة فى الجنوب الغربى من نهر ايرتيس فيما هو الآن شمال غربى وشمال شرقى قازاخستان . أما التركستان والشرق الأقصى فحتى ذلك العام ١٨١٥ لم يكن قد حدثت بها فتوحات هامة .

ولكن فتح القوقاز على أى حال، كان قد أعدت له العدة واتخذ سبيله الى الهدف. وسهلت الأمر لهم معاهدة كوتشوك كاينارجى (١٧٧٤) التى سلمت لهم بالامارات الجبردينية (نسبة الى جبر الدين) فى القوقاز الشمالى، وبذلك أصبح لهم طريقاً برياً يوصل الى جورجيا. ولما نشبت الحرب بين جورجيا وبين جيرانها المسلمين، استنجدت بروسيا لتعينها على أعدائها فكانت شر المعين، وانتهى بها الأمر الى ان قبلت جورجيا الحامية الروسية فى إتفاقية ١٧٨٣ والتى أعطت جورجيا استقلالا داخلياً تحت سيادة القيصر. ولكن روسيا لم يطل بها الأمر حتى خرقت هذه الاتفاقية ونكثت بتعهداتها، وفى عام ١٨٠١ ضمت جورجيا الى الدولة الروسية ضماً كاملا وأصبحت أقليماً روسياً يحكمه حاكم روسى. وتبعها الى نفس المصير أقليم منجوريليا الواقع فى غربها جنوبى جبال القوقاز.

وفى عام ١٨٠٤ احتلت الجيوش الروسية خانية غانجة، وبعدها استسلمت الخانيات الآذرية الاخرى فى أذربيجان الغربية . وفى عام ١٨٠٦ تغلب الروس على مقاومة خانية باكو وأدى ذلك الى سقوط الخانيات المستقلة الأخرى فى أذربيجان الشرقية(٨) . وفى

---

(٧) جعفر سيجدامت، كريم (القرم)، وارسو: المعهد الشرقى، ١٩٣٠، ص ٥٥٩ وما يتبعها .

(٨) و. ا. د. الن، تاريخ شعوب جورجيا...، لندن: كيجان باول، ترنش، ترابنار، ١٩٣٢، ص ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٥، ٢١٧ . أنظر أيضاً الموسوعة السوفييتية الكبرى من ٥٦ مجلد، موسكو عام ١٩٣٠، المجلد ١٩، ص ٥٦٧–٥٦٨ .

عام ١٨١٣ سقطت داغستان فى أيديهم وبذلك تم لهم الاستيلاء على جميع الأراضى الآذريـة وهى التى تضمها الآن جمهورية أذربيجان الاشتراكية السوفييتية .

ولم يتأخر فتح ما بقى من أراضى ما وراء القوقاز كثيراً، فقد تم تطويق أرمينيا فى عام ١٨٢٨ . وفى العام التالى أخذت الساحل الشرقى للبحر الأسود بالكـامل وهو ما يتمم جمهوريتى أرمينيا وجورجيا الحاليتين. وبرغم ان الروس كـانوا قد استولوا على اقاليم ما وراء القوقاز وعلى الشريط الساحلى للبحر الأسود وعلى الطريق الحربى خلال الممر الأوسط، فقد بقيت السفوح والمنحدرات الشمالية لجبال القوقاز بعيدة عن سيطرتهم بفضل المقاومة الباسلـة التى أبداها رجال القبائل فى هذه المناطق. وبرغم ما كـان للروس من تفوق هائل فى العدد والعدة، لم يكن نصرهم نصراً سهلا سريعاً. فما أن بدأ الروس غزوهم لتلك المناطق الجبلية الوعرة حتى اتحدت القبائل المحلية تحت القيادة الموحدة للشركسى شاميل ودارت الحرب على طريقة حرب العصابات واتبع شاميل أسلوب الهجوم الخاطف والاحتماء بالجبال الوعرة واحرز بذلك كثيراً من الانتصارات مما أرغم الروس على ان يبذلوا جهداً حربياً فائقاً فى منطقة كـان الظن ان تكون المقاومة فيها محدودة ضعيفة الأثر. ثم لجأت القيادة القيصرية العليا الى تغيير استراتيجيتها فى الحرب فى تلك المنطقة الى استراتيجية التطويق والحصار لمنطقة الجبال بأكملها والقصف المركز بالمدفعية الثقيلـة. وتكبد أهل القوقاز نتيجة لذلك خسائر باهظة فى الأرواح بلغت ١٢ ألف من المقاتلين فى المتوسط فى السنة الواحدة وعلى مدى سنوات عديدة مما أدى مع الحصار المستمر الى ان أخذ الموقف البطولى لرجال القبائل فى التدهور شيئاً فشيئاً وما ان حل عام ١٨٦٤ حتى كـان الروس قد نجحوا فى احتلال المنطقة بأكملها وفرض سيطرتهم عليها نهائياً(٩).

ومنذ ذلك الحين بدأت عملية اضطهاد استعمارى غاشم لشعوب ما وراء القوقاز وشعوب القوقاز الشمالية وفيهم من المسلمين المتقدمين حضارياً نسبياً ما يبلغ ٧٠٪ من شعوب هذه البلاد.

وفى نفس الوقت، كـانت يد السيطرة الروسية تمتد نحو الجنوب فى تركستان، وبحلول منتصف القرن التاسع عشر كـانت روسيا قد تمت لها السيطرة على أجزاء من الأراضى التركستانية يبلغ اتساعها ما تشغلـه جمهورية قازاخستان السوفييتية حالياً تقريباً. وبذلك وصلت روسيا الى حدود ثلاث خانيات اسلامية أخرى هى خيوة وبخارا وخوقند.

---

(٩) المرجـع السابق، المجـلد ٣٠، ١٩٣٧، ص ٤٩٥–٥٠٥. أنظر أيضاً تاريخ الاتحـاد السوفييتى، المجلد ١، ص ٢٨٧–٢٨٩ والمجلد ٢، ص ٢٧٩–٢٨٢.

وهكذا بدأت حلقة جديدة فى سلسلة الحروب التوسعية الاستعمارية التى باشرتها روسيا القيصرية فى البلاد الاسلامية فى آسيا. وفى عام ١٨٦٥ سقطت طشقند عاصمة خانية خوقند وكبرى مدن هذه المنطقة فى يد الروس بعد معارك دامية ومقاومة باسلة من أهل المدينة الذين بلغ تعدادهم حينذاك ١٠٠ ألف نسمة. وبعد سنتين من سقوط طشقند تحولت خانية خوقند الى اقليم تركستان وولى عليه حاكم روسى هو الجنرال كاوفمان الذى عرف بقسوته وغلظته. وبعد ذلك قاد جنرال كوفمان الغزو الروسى لخانية بخارا أيضاً، وفى عام ١٨٦٨ احتلت الجيوش الروسية مدينة سمرقند عاصمتها والمركز الاسلامى والثقافى الأكبر فى منطقة آسيا الوسطى، وتحولت هى الأخرى الى مستعمرة روسية على غرار سابقتها. ولم يمهل الروس أهل خيوة كثيراً، ففى عام ١٨٧٨ وقعت هى الأخرى فى قبضتهم وضمت الى ممتلكات القيصر.

وحتى ذلك الوقت، لم يكن قد سلم من السيطرة الروسية من كل هذه الأقاليم سوى الصحارى وسهول التركمانستان، التى أثبتت انها عقبة هائلة تعرقل طريق الغزاة المستعمرين وتسد الطريق فى وجه اطماعهم التى لا تتوقف عند حدود(١٠). ونقل الروس جيوشهم من منطقة القوقاز الحربية وبدأوا حملات غزو جديدة على بلاد التركمان قادها الجنرال سكوبوليف الذى اشتهر بطغيانه وتجرده من أى شعور إنسانى. واستغرقت عملية فتح بلاد التركمان ما يقرب من ١٥ عاماً، من ١٨٦٩ عندما بنى الروس حصناً عند رأس الجسر بالقرب من كراسنوفودسك، حتى سقوط واحة ميرف عام ١٨٨٤(١١)، وذلك بعد حروب ومعارك طاحنة أبدى فيها أهل البلاد شجاعة وبسالة نادرة المثال أثبتت نجاحهم فى المقاومة طول خمسة عشر عاماً برغم عدم التكافؤ بين الروس وبينهم فى السلاح والمعدات. فقد كانوا يواجهون المدافع والبنادق بالسيوف والحراب(١٢). وتشغل بلاد التركمان حالياً أراضى خمس جمهوريات إسلامية فى الاتحاد السوفييتى، تتحدث أربع منها اللغة التركمانية، وتتحدث الخامسة اللغة التاجيكية وهى لغة تشبه اللغة الايرانية. وتحولت بلاد التركمان الى مستعمرات لروسيا القيصرية بكل معنى الكلمة وسوف يرد تفاصيل ذلك فيما بعد.

وما ان استتب الأمر للروس فى بلاد التركمان حتى أخذوا يتطلعون الى المناطق الأخرى المجاورة، وبدأوا محاولاتهم للسيطرة على افغانستان وايران. ولكن حركتهم فى تلك المنطقة

---

(١٠) المرجع السابق، المجلد ٢، ص ٥٥٢–٥٥٣.
(١١) نفس المرجع السابق.
(١٢) المرجع السابق، المجلد ١، ص ٧١٧–٧١٨ والمجلد ٢، ص ٢٧٠–٢٧١، ٥٣٧، ٥٤١، ٥١٥–٥١٦، ٥٤٩، ٥٥٢.

أثارت معارضة بريطانيا، كما حدث فى البلقان والأناضول، ومن هنا فقد صحبها تحرك دبلوماسى انتهى بأن عقدت إتفاقية بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٠٧ لتقسيم ايران بينهما، وحصلت روسيا بموجب هذه الاتفاقية على الأقاليم الشمالية الخمسة فى ايران والتى يعيش فيها ما يقرب من ثلاث أرباع السكان وشملت مدناً هامة مثل طهران وتبريز ومشهد وكوم وكاشان واصفهان ويزد(١٣). وتغلغل النفوذ والسيطرة الروسية بسرعة فى هذه المنطقة حتى أصبح لهم الأمر والنهى فى المسائل الاقتصادية والمالية، وذلك بعكس ما حدث فى المنطقة البريطانية أو المناطق المحايدة. وسار الروس كعادتهم على تنفيذ سياسة الترويس فى ايران فكان "القناصل" الروس هم أصحاب الكلمة الأولى والأخيرة فى تبريز، وحمل الايرانيون الذين لم يرفضوا عملية الترويس جوازات سفر روسية، حتى اللافتات التى تحمل أسماء الشوارع والميادين فى طهران فقد كانت تكتب باللغتين الايرانية والروسية. وبدأ شمال ايران يتدرج نحو الوضع الذى كان فى تركستان، ولم ينقذه من ان يلتهمه الدب الروسى الا نشوب الحرب العالمية الأولى ثم الثورة البلشفية(١٤).

وكانت الثورة البلشفية كذلك التى أدت الى فشل اطماع القيصر فى الاستيلاء على اسطنبول (القسطنطينية) ومضايق البحر الأسود، والى فشل جهوده لتقسيم الاناضول وانشاء دولة أرمينية اقطاعية كبيرة(١٥).

لقد مر الاستعمار الروسى فى العهد القيصرى بثلاثة مراحل:

مرحلة التوسع دون استعمار، فى معظم ما يسمى الآن بجمهورية روسيا الاشتراكية الفدرالية السوفييتية. ومرحلة التوسع الاستعمارى، فيما يعرف الآن بجمهوريات الاتحاد السوفييتى والاقاليم التى تتمتع بالحكم الذاتى فى اطار جمهورية روسيا السوفييتية. ثم المحاولات التى فشلت فى مواصلة التوسع، فى ايران وافغانستان والاناضول والبلقان. ومما يستحق الذكر من بين هذه المحاولات الفاشلة لمواصلة التوسع القفزة القيصرية غير الموفقة عبر البحار الى أمريكا الشمالية، والتى انتهت ببيع الاسكا الى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٨٦٧.

---

(١٣) جورج لينسوفسكى، الشرق الأوسط فى الشئون العالمية، ايتاكا: مطبعة جامعة كورنيل، ١٩٥٢ ص ٣٣–٣٦.

(١٤) بيرسى م. سايكس، تاريخ بلاد فارس، الطبعة الثالثة من مجلدين لندن، ماكميلان، ١٩٣٠ المجلد ٢، ص ٤٣٣–٤٣٧. أنظر أيضاً بوهدان هالايسوك الامبريالية الروسية فى ايران، المعهد الشرقى فى وارسو، المجلد ٩، رقم ١ (مارس "آذار" ١٩٣٨)، ص ١٥–١٦.

(١٥) لينسوفسكى، السابق ذكره، ص ٤٧–٤٩. ف. ستانيكفيتش، سوديى نادودوف روسى (قدر شعوب روسيا)، برلين، ايزداتيلستفو ا. ب. لاديزنيكوفا، ١٩٢١، ص ٢٣٨–٢٤٠، ٢٥٧.

وعلى أى حال فقد وجدت حكومة القيصر أنه من الأصوب ان تهتم بالتوسع فى جنوب شرقى سيبيريا. وعن طريق مجموعة من الاتفاقات التى اغتصبتها من الصين فى ظروف تدهورها وانحلال قواها، حصلت حكومة القيصر على عدد من الامتيازات الاقتصادية والاقليمية التى ما كانت لتحلم بها:

فقد حصلت على الأراضى الواقعة غربى نهر امور جميعها فى عام ١٨٥٨، ثم حصلت بعد ذلك على اقليم بريمورى الذى يضم مقاطعة فلاديفوستوك الساحلية فى عام ١٨٦٠، ثم سخالين الشمالية فى عام ١٨٧٥. وعندما تم انشاء خط سكة حديد سيبيريا وفتحت البلاد على مصراعيها لموجات المستوطنين الجدد ارغمت الصين على ان تسمح بمرور خط من تلك السكة الحديدية داخل منشوريا الى فلاديفوستوك. وفى عام ١٨٩٨ ابرمت روسيا مع الصين عقداً يسمح لها بمقتضاه باستئجار شبه جزيرة لياوتونج لمدة ٢٥ سنة. وانتهى الأمر باستيلاء حكومة القيصر على منشوريا فى عام ١٩٠١ بحجة اخماد الفتنة والضرب على أيدى المتمردين. ولم يوقف موجة التوسع الروسى فى جنوب شرقى سيبيريا الا هزيمتها أمام اليابان فى الحرب عام ١٩٠٥. وقسمت منشوريا بين روسيا واليابان وأصبحت بذلك منشوريا الجنوبية منطقة نفوذ يابانى بينما تحولت منشوريا الشمالية الى مستعمرة روسية(١٦).

وانتهزت روسيا فرصة اندلاع ثورة ١٩١١ فى الصين، وسارعت تطلب منح منغوليا الاستقلال على ان تبقى تحت سيادة الصين(١٧). وكان مصير منغوليا تماماً مثل مصير منشوريا الشمالية وأصبحت فى نهاية الأمر مستعمرة روسية. وهنا ينبغى ان نلاحظ ان مقاطعة فلاديفوستوك واقاليم الشرق الأقصى الأخرى التى ضمت الى الامبراطورية ثم صارت ضمن جمهوريات روسيا الاشتراكية الفدرالية السوفييتية حالياً، لا يمكن اعتبارها من الناحية القانونية مستعمرات. ونفس الشىء يمكن ان يقال عن الممتلكات السيبيرية المبكرة.

كان هذا استعراضاً سريعاً لنشأة واتساع الامبراطورية الروسية القيصرية منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى وقوع الثورة البلشفية. وخلال تلك الفترة التى تزيد على أربعة

---

(١٦) بولشايا سوفيتسكايا انسيكلوبيديا، المجلد ٣٨ (١٩٣٨)، ص ٧٩–٨١.

(١٧) ا. م. رايزنر، ب. ك. روبتسوف، مؤلفى "التاريخ الحديث لدول الشرق وراء الحدود السوفييتية"، من مجلدين، موسكو. ايزداتيلستفو موسكوفسكوجو اونيفرسيتيتا، ١٩٥٢، الجزء ١، ص ٥١٣ وما يتبعها، الجزء ٢، ص ٩٠ وما يتبعها. أنظر أيضاً "التسابق الأمريكى الروسى فى الشرق الأقصى" ادوارد هـ. زابريسكى، فيلادلفيا، مطبعة جامعة بنسيلفانيا، ١٩٤٦، ص ١٨١–١٨٢.

قرون اتسعت رقعة الامبراطورية القيصرية من حوالى ١٤ ألف ميل مربع فقط الى ما زاد على ٨,١ مليون ميل مربع أى ما يقرب من ٦٠ ضعف لمساحتها الأصلية . ويلاحظ ان ما يقرب من ثلاثة أرباع هذه المساحة الهائلة قد ضم مباشرة الى روسيا ولم يعتبر قانونياً كمستعمرات . اما الربع الباقى، وهو ما تزيد مساحته على ٢ مليون ميل مربع فقد اعتبر كمستعمرات وعومل أيضاً بواسطة حكومة القيصر كمستعمرات .

السياسة الاستعمارية لروسيا القيصرية

ان لمن اسهل الأمور ان يحدد المرء مستعمرة ما تابعة لاحدى دول غرب أوروبا الاستعمارية، سواء كانت هذه المستعمرة ترتبط جغرافياً، أى تتصل اتصالا أرضياً بالدولة الأم (الدولة المستعمرة) أو كانت منفصلة عنها جغرافياً أى تقع فيما وراء البحار. والسبب فى سهولة هذا الأمر يرجع الى إمكان حساب مقدار ما تتمتع به المستعمرة من استقلال داخلى ومقدار ما تتمتع به من سلطة فى اتخاذ القرارات السياسية الهامة . أما فى ظروف الامبراطورية الروسية القيصرية، فان هذا الأمر يصبح صعباً للغاية . إذ لم يوجد أقليم بخلاف فنلندا وأحياناً بولندا، كان قد حصل على استقلال داخلى حقيقى. وكانت جميع القرارات السياسية الهامة تصدر فى موسكو بتجاهل تام لسلطات الدول أو الشعوب التى يعنيها أمر هذه القرارات. ولكنه ليس أمراً مستحيلا ان يتعرف المرء على خصائص السياسة الاستعمارية الروسية فى بلاد أبيدت شعوبها أو شرد أهلها وطردوا من ديارهم ومن أراضيهم أو جردوا من ممتلكاتهم وتركوا للموت جوعاً وحيث استولى المستوطنون الروس على أخصب الأراضى وأغنى الغابات، وتحول الاقليم الى امتداد طبيعى لروسيا، فضلا عن تبعيته الاستعمارية .

كانت هذه الأقاليم التى تتمتع حالياً من الناحية الشكلية باستقلال داخلى، سواء كانت جمهوريات اتحادية أو أجزاءاً من جمهورية روسيا الفدرالية السوفييتية، كانت قد عوملت أبان الحكم القيصرى كمستعمرات واستغلت استغلالا استعمارياً تاماً . ويلزمنا هنا ان نقوم بعملية فحص واستكشاف للتصور الروسى للاستعمار، وسوف نستقى عناصر عملية الفحص هذه من أقوال وأعمال رجال الحكومة القيصرية أنفسهم . ففى عام ١٨٦٤ وعند بداية الغزو الروسى لتركستان، تحدث وزير خارجية القيصر، وهو الأمير الكساندر

م. جورتشاكوف شارحاً أهداف روسيا واطماعها الاقليمية فى مذكرة بعث بها الى حكومات الدول الغربية، فقال ان ما تفعله بلاده فى التركستان شديد الشبه بما تفعله فرنسا فى أفريقيا وبما تفعله بريطانيا العظمى فى الهند أو بما تفعله هولندا فى اندونيسيا(١٨). وفى الحقيقة فان الأمر يتشابه فعلا من نواحيه السيئة دون نواحيه الطيبة .

سبق لنا ان تحدثنا عن الأساليب الغاشمة التى صنعت بها روسيا القيصرية امبراطوريتها وفرضت بها سيطرتها على مستعمراتها : لجأت الى القوة فى سيبيريا وتركستان والقوقاز الشمالية والى الحيلة فى القرم ثم الى الحنث بالوعد فى جورجيا وأوكرانيا . وان ما دأب المؤرخون الروس على ذكره عن الحروب التى أثارتها روسيا ضد القبائل الهمجية فى اوراسيا (أوروبا وآسيا) وانها كانت حروب تحريرية، لادعاء واه لا يحظى من الحقيقة الا بقسط ضئيل . وهذا القسط الضئيل هو ما يخص الحروب التى أدت الى خروج التتار من روسيا، وما عدا ذلك فلا علاقة له البتة بالحروب التحريرية، فقد كانت حروب استعمارية خالصة .

وحتى هؤلاء " المحررون " — وهم امراء موسكو الأوائل (الذين تولوا اخراج التتار من روسيا) — فقد وصفهم معظم المؤرخون الروس بأنهم : " من أسافل اللصوص "(١٩). ان واحداً من مشاهير المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الحضارة الروسية يقول بصراحة تامة :

> لو ان أحداً قد سأل دوقات موسكو أولئك عما سيصنعون إذا ما حرروا موسكو من التتار، لما استطاعوا بالتأكيد ان يعطوا جواباً أو ان يقدموا شيئاً غير ذلك القديم الذى صار يجرى فى دمائهم، الا وهو الاغراق فى الشهوات والتمادى فى الغى وأخذ ما للناس بغير وجه حق والظلم والبطش لا لهدف الا ارضاء لشهوة التسلط وتكديس الأموال التى يجمعونها بالباطل(٢٠).

وواقع الأمر ان أولئك الأمراء — بعد ان تم لهم تحرير موسكو من التتار — تمادوا فى اطماعهم وتطلعوا الى القوة والسلطان بغير حدود أو ضوابط وواصلوا بناء جيوشهم وقواتهم المسلحة وأخذوا يستولون على الأراضى المحيطة بهم ثم يجعلون منها قواعد للوثب على أراضى جديدة . ثم يستطرد نفس المؤرخ :

---

(١٨) استوريا س. س.س.ر.، الجزء ٢، ص ٥٤٧ .

(١٩) فاسيلى ا. كليوتشيفسكى، تاريخ روسيا، ٥ أجزاء، ترجمة الى الإنجليزية س. ج. هوجارت (لندن: ج. م. دنت وابنائه، ١٩١١–١٩٣١) الجزء الأول، ص ٢٧٩ .

(٢٠) بافيل ن. ميليوكوف، اوتشيركى بو استورى روسكوى كولتورى (مجمل التاريخ الثقافى الروسى)، طبعة بوبيلى، ٣ أجزاء (باريس: سوفريمينيا ذابيسكى، ١٩٣٠–١٩٣٧)، الجزء الثالث، ص ٤٠ .

ان طابع الاستحواز والتملك الذى سيطر على السياسة الروسية لم يتغير فى أى منطقة من المناطق المفتوحة، بغض النظر عن ذلك الخليط من الشعارات الأيديولوجية التى تشدقوا بها. ان دور روسيا فى الحروب النابوليونية لم يتوقف عند تحرير أراضى الوطن. والاستيلاء على فنلندا وبولندا وبيساربيا لم يكن عملا اضطرارياً بأى شكل من الأشكال(٢١).

فواقع الأمر ان حكومة القيصر كانت تعمد بعد فتح بلد ما الى تشكيل سياستها بما يلائم طبيعة اهاليها. وفى الأراضى الغربية كانت سياسة حكومة القيصر فى عملية الترويس أخف وطأة وأقل تعسفاً. أما فى المناطق الخالية نوعاً مثل سيبيريا، فقد تعرض الأهالى لأشد أنواع القسوة والعذاب والطرد والابادة. وأقام الروس المراكز التجارية وأحاطوهـا بالحصون والجيوش مثلمـا كان يحدث فى أمريكا وفى أفريقيا فى أيام الاستعمار الأولى. وكانوا يحملون الناس على ان يقايضوا تجارتهم بأدوات الزينة والخمور فقط. ومثلما فعل الغزاة الاسبان فى أمريكا الوسطى والجنوبية، فان الفاتحين الروس فرضوا الاتاوات على الأهالى فى شكل حصص من الفراء الثمينة يقدمونها لهم، وسحقوا أية مقاومة بوحشية لا مثيل لها. وكانت هذه السياسة قد سار عليها المستوطنون الروس الأوائل – ولكن بطريق غير رسمى – ثم لم تلبث ان صارت هى النموذج المتبع رسمياً كلما قدم الى البلاد رسول من القيصر(٢٢).

ان أبشع وجه للسياسة الامبريالية الروسية كان الاستغلال الفظيع لأحسن الحقول والمراعى والغابات. ففى خانية قازان وضع امراء موسكو أيديهم على أراضى واسعة بالاضافة الى الأراضى التى كان القيصر قد منحها لهم كهبات. وحدث شىء مماثل لذلك فى سيبيريا الوسطى وأقليم جبال التاى فى القرن الثامن عشر، حين أرغم الأهالى على دفع ضرائب باهظة تحصل منهم فى شكل جبايات من الفراء الثمينة. وكانت مثل هذه السياسة الظالمة هى التى أدت الى انقراض قبائل كاملة كانت تعيش فى شبه جزيرة كامتشاتكا. وفى عهد بطرس الأكبر صودرت جميع الأراضى الصالحة للزراعة وكذلك الغابات فى المناطق الواقعة على السفوح الجنوبية لجبال اورال ثم وزعت على الشركات الكبرى وأرغم الأهالى الذين كانوا يملكون تلك الأراضى على العمل بالأجر فى الشركات. وفى قازاخستان وضع المستعمرون والكوساك أيديهم على أفضل المراعى (فى بداية القرن التاسع

---

(٢١) المرجع السابق، الطبعة ٤، الجزء الأول، ص ١٢٦–١٢٧.
(٢٢) استوريا س. س.س.ر.، الجزء الأول، ص ٥٧٨–٥٧٩، ٥٨٤، ٧١٦.

عشر) . وفى أواخر القرن نفسه وضعوا أيديهم على الأراضى الزراعية فى القوقاز الشمالية (٢٣) .

وظلت عملية تحويل الأراضى المحتلة الى مستعمرات وطرد أهاليها منها الى المناطق القاحلة، ظلت هى حجر الزاوية فى السياسة الامبريالية القيصرية . وكان الروس يرغمون الأهالى فى تلك البلاد على الفرار الى خارجها أو ترك أراضيهم الخصبة الغنية الى أراضى أخرى أقل مزايا عن طريق ارهاقهم بالضرائب الباهظة واجبارهم على العمل فى السخرة لحسابهم حتى تخلوا الاراضى للمستوطنين الروس . وبمرور الزمن تغيرت معالم تلك البلاد وتغيرت الصفات الجنسية للسلالات البشرية التى كانت تسكن يوماً ما تلك الاقاليم . وهذا مثلا ما حدث فى بشكيريا وقازاخستان الشمالية، حيث حل المستعمرون الروس ورجال الحرس القيصرى من الكوساك محل أهاليها الأصليين(٢٤) .

وظلت هذه السياسة بدون تغيير حتى فى القرن العشرين . وفى الفترة من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١٣ استولى الروس على ما يبلغ ٢٤٠٠٠٠٠ هكتار من الأراضى الزراعية التى أخذوها من ملاكها القازاق بموجب "لائحة ستوليبين" . وفى عام ١٩٢٤، انتزعوا من شعب القلمون ما يبلغ مليون هكتار، وأجرّت الأراضى المصادرة الى روس بايجارات زهيدة جداً . وكان هذا بعينه هو ما حدث فى القرغيز وفى بوريات وكذلك فى الأقاليم المتاخمة للبحر الأسود . وليس هناك من شك فى ان هذه السياسة أدت الى افقار شعوب هذه المناطق، ثم الى اختفاء أو انقراض قبائل بأكملها، مثل قبائل الاوستياك(٢٥) .

وكان من النادر جداً ان يسعى الروس الى اعادة توطين تلك الشعوب المتضررة فى مناطق جديدة . فعلى سبيل المثال كان عدد من طردوا من سكان القوقاز الشمالية الى تركيا وفى ظل ظروف لا إنسانية هو ٤٢٠٠٠٠، بينما كان عدد من أعيد توطينهم فى مناطق جديدة فى سهول نهر كوبان وحوض نهر لابا لا يزيد على ٩٠٠٠٠ فقط(٢٦) .

ان الدول الاستعمارية فى أوروبا الغربية تلقى انتقاداً عنيفاً بسبب استخدامها بعثات التبشير المسيحية واستخدامها لنفوذ الكنيسة للسيطرة على عقول شعوب المستعمرات وبالتالى

---

(٢٣) المرجع السابق، الجزء ١، ص ٥٦٤، ٦٣٧–٦٣٨، ٦٧٨، الجزء الثانى، ص ٥٤٥، ٦٥٦–٦٥٧.
(٢٤) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٦٣٧، الجزء ٢، ص ١٤٢–١٤٣، ٢٤٧، ٦٧٤–٦٧٥ .
(٢٥) بولشايا سوفيتسكايا انسيكلوبيديا، الجزء ٣٠ (١٩٣٧)، ص ٥٩٢ .
(٢٦) استوريا س.س.س.ر. ، الجزء ٢ ، ص ٦٤٩ . أنظر أيضاً "فتح القوقاز الغربية ونهاية الحرب القوقازية"، سيميون اسادزه ، تيفليس: طبوغرافيا شتابا كافكاسكوجو فويناجو اوكروجو، ١٩١٤، ص ٢١، ١٥١، ١٥٣، ١٧٥ .

يضمنون ربطها بالدولة الاستعمارية برباط وثيق. ولقد لجأت روسيا القيصرية الى أساليب مشابهة وان كانت قد نفذتها بغشامة وفجاجة وبصورة صريحة ومباشرة. فبعد فتح قازان أصدرت حكومة القيصر أمراً بهدم المساجد وارغام الأهالى المسلمين والوثنيين على الخروج على أديانهم واعتناق المسيحية الارثوذكسية، وأمرت بتوقيع أقسى العقوبات على من يعصى ذلك الأمر. وكان عدد من اعتنق المسيحية من سكان اقليم الفولجا الوسطى خلال القرن السابع عشر ٤٠٠٠٠٠، لم تفعل غالبيتهم العظمى ذلك طوعاً واختياراً. اما الذين تمسكوا بدياناتهم وعقائد آبائهم وأجدادهم، فقد تعرضوا اما للاغواء والاغراء بأحلى الوعود، أو للاضطهاد والتعذيب الذى اختلف من فرض الضرائب الباهظة الى الضرب والجلد والطرد من البلاد. وطبقت نفس السياسة فى القرم حيث حولت المساجد الى كنائس ونزعت لوحات مقابر المسلمين واستعملت فى أعمال تشييد المبانى الجديدة التى أنشأها الروس. اما المبانى التاريخية التى كانت تحمل امجاد ومفاخر تتار القرم وماضيهم التليد، فقد حطمت وازيلت معالمها فى طيش وفجور(٢٧).

ومن أعظم الأدلة على ان سياسة ارغام الأهالى من غير المسيحيين على اعتناق المسيحية كانت ذات دوافع سياسة أكثر منها دينية، هو ما حدث فى القرن السابع عشر حين صدر قرار بتحريم التعميد فى سيبريا. وكان السبب ان من يعتنق المسيحية من أهالى تلك المناطق كان يعفى من اداء "الياساك" — وهى ضريبة تسدد بالفراء(٢٨).

ومن باب تقييم السياسة الاستعمارية القيصرية، نرى ان نفس المناهج والأساليب قد نفذت فى جميع البلاد التى ساقها المصير الى الخضوع لسيطرة حكومة القيصر، سواء كانت من الممتلكات الامبراطورية أو غيرها من البلاد التى كانت تتمتع بكثير من الترابط السياسى والعنصرى. فالارغام على تغيير الدين قد نفذ على جميع الشعوب الوثنية وكذلك الاسلامية، وان لم يكن بنفس النجاح. ونفذت هذه السياسة على اليهود أحياناً، بل وعلى غير الارثوذكس من المسيحيين. ولقد تضاءلت العلاقات الاستعمارية بقدر نجاح عملية الترويس للعنصر البشرى، الى ان اختفت. اما عملية الترويس الثقافى، فلم تحقق نجاحاً كاملا فى العصر القيصرى. ومن المحتمل ان مقاومة الشعوب لهذه العملية هى التى حافظت على الشخصية القومية حية فى هذه الشعوب حتى فجرتها من جديد نهاية روسيا القيصرية بقيام الثورة البلشفية.

---

(٢٧) استوريا س.س.س.ر.، الجزء الأول، ص ٣٦٧، ٥٨٥، ٥٨٧، ٦٧٧، الجزء الثانى، ص ٢٤٢–٤٢٣، ٦٣٧.

(٢٨) المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٥٨٥، ٥٨٧.

سقوط الامبراطورية القيصرية

أخذت شوكة حكومة القيصر تتضعضع شيئاً فشيئاً واخذ سلطانها يتضائل تدريجياً نتيجة لما أصابها من انهاك بسبب الحروب التى خاضت فيها تباعاً وبسبب فساد الحكم والظلم والاستبداد الذى ساد قروناً طويلة، الى ان انتهى بها الحال الى الانهيار التام والشلل الكامل. وترتب على ذلك قيام صراعات فوضوية مريرة بين الأحزاب والجماعات المتنازعة على السلطة داخل حدود الامبراطورية الروسية المترامية الأطراف. ولم يكن هناك شك فى ان الشعوب التى استضعفت وغلبت على أمرها سوف تستغل فرصة هذا الخلل والارتباك الذى أصاب السيطرة الروسية. ونهضت هذه الشعوب تحطم الاغلال الاستعمارية وتفكها عن رقابها. وانتشرت بينها الحركات الاستقلالية والتحررية. فمنها من طالب بالاستقلال التام عن روسيا، ومنها من اكتفى بالمطالبة بالاستقلال الداخلى. وليس هناك شك أيضاً فى ان البلشفيك — وهم السادة الحاكمون الجدد فى روسيا — كانوا قد أظهروا نوعاً من العطف على تلك الحركات فى بادىء الأمر باعتبارها برهاناً على فساد واستبداد حكم القياصرة. وسوف نستعرض فيما يلى هذه الانتفاضات أو الحركات الاستقلالية التى تحدثنا عنها. وسوف يكون استعراضنا لها فى ترتيب جغرافى يبدأ من الشمال الغربى ويسير فى عكس اتجاه دوران عقارب الساعة. وسوف لا نتبع الترتيب الزمنى لتلك الاحداث التاريخية لأن الترتيب الجغرافى اوفق لها.

ولنبدأ بفنلندا وهى تلك التى كانت تتمتع — باعتبارها غراندوقية — بنصيب أكبر من الاستقلال الداخلى منذ ان ضمت الى الامبراطورية الروسية فى عام ١٨٠٩. ثم تليها، حسب الترتيب الجغرافى، انجريا التى طالبت هى الأخرى بالاستقلال والحرية. وفيما يختص باستونيا، فقد أعلن انها دولة مستقلة فى ٢٤ فبراير (شباط) ١٩١٨. ثم لاتفيا فى ١٨ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٨. وفى ١١ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧، أعلن المجلس الوطنى الليتوانى استقلال ليتوانيا، وهى التى كانت ترتبط مع ألمانيا بروابط وثيقة فى النواحى العسكرية ووسائل المواصلات والنقد والجمارك. ثم اتاحت فرصة هزيمة ألمانيا فى الحرب الفرصة لليتوانيا لكى تتخلص من تلك الروابط وتتحرر نهائياً من عوائق لتحقيق استقلالها كاملا غير منقوص.

أما فى بولندا، فقد ضمت الأراضى البولندية التى كانت تحت يد الروس مع الأراضى البولندية الأخرى التى كانت تحت يد بروسيا والنمسا، وأعيد توحيدها وأعلن قيام دولة بولندية موحدة حرة فى ٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٨ .

أعلن شعب بيلوروسيا (روسيا البيضاء) هو أيضاً عن عزمه على انشاء دولة قومية ديموقراطية فى بيلوروسيا . وعقد أول مؤتمر عام للبيلوروسيين فى ١٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ فى مدينة منسك وحضره ١٨٧٢ مندوباً عن مقاطعات منسك وموجيليف وفيتبسك وسمولنسك وفيلنا وجرودنا . وكان هؤلاء المندوبون يمثلون جميع فئات الشعب وطبقاته الاجتماعية . ورفض هذا المؤتمر ان ينضم شعب بيلوروسيا الى البلشفية السوفييتية واصدر قراراً بانشاء جمهورية بيلوروسيا الديموقراطية المستقلة(٢٩) .

وامتدت موجة الاستقلال الوطنى الى أوكرانيا وترددت فى جميع أرجائها الواسعة . وفى ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٧ نادى المجلس الوطنى المركزى الأوكرانى بأوكرانيا جمهورية شعبية تقوم على أراضى أوكرانيا وتتسع حدودها باتساع الأراضى الأوكرانية جميعها . ثم أضاف ذلك الاعلان ما يفصح الرغبة فى قيام اتحاد فدرالى مع روسيا، ولكن ذلك لم يكن الا من سبيل تخفيف الأمر على الروس الذين كانوا يسكنون مدينة كييف والمدن الأوكرانية الأخرى ومراعاة لشعورهم، مع ملاحظة ان هؤلاء الروس كانوا يشكلون الغالبية العظمى من سكان المدن الأوكرانية(٣٠) .

وفى ٥ مايو (أيار) ١٩١٧ التقى ما يقرب من ١٥٠٠ مندوب ينوبون عن جميع موانىء شبه جزيرة القرم . وكان اجتماعهم فى سيمفروبول . وكان هدف ذلك المؤتمر هو المطالبة باستقلال القرم من النواحى الثقافية (الغالبية العظمى من أهل القرم كانوا فى ذلك الوقت من المسلمين) . وبعد ذلك بسبعة شهور، أى فى أعقاب اعلان استقلال أوكرانيا مباشرة — والذى تصادف ان تضمن الاشارة الى ان "القرم للقرميين" — فقد بادر القرميون الى حل جميع القيود التى كانت تشدهم الى عجلة موسكو. وفى يوم ٢٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ وافق برلمان التتار على دستور جمهورية القرم الديموقراطية(٣١) .

---

(٢٩) ج. مينسكى، "تأسيس جمهورية بيلوروسيا الاشتراكية السوفييتية"، بيلوروسيا ريفيو، ميونيخ، رقم ١ (١٩٥٥)، ص ١٣ .
(٣٠) انسيكلوبيديا اوكراينوزنافستفا، ص ٥٠٦ .
(٣١) "دير ناتسيونال كامف دير كريمتوركن" (النضال الوطنى لأتراك القرم)، مدينة ايمزديتين، دار ليخته للنشر، ١٩٥٢، ص ٣٣ وما يتبعها .

ونستمر فى الدوران فى عكس اتجاه دوران عقارب الساعة فنصل الى بلاد ما وراء القوقاز ونرى ان شعوب هذه المناطق قد استغلت هى الأخرى تلك الفرصة ونهضت تسعى لتحقيق حلمها القديم فى الحرية والاستقلال. وفى ٢٨ أبريل (نيسان) ١٩١٨، أعلن قيام جمهورية اتحادية ديموقراطية مستقلة تضم شعوب جورجيا وأرمينيا وأذربيجان. ولكن الخلافات ما لبثت ان دبت بينهم بتأثير النفوذ الأجنبى وعوامل أخرى. فقد كان شعب أذربيجان المسلم يميل نحو الاتراك، بينما كان الأرمن والجورجيون الأرثوذوكس لا يشاركونهم هذا الميل، بل كانوا يخشون من تدخل الاتراك فى شئونهم. واحتدت الخلافات بينهم حتى بلغت حد الانقسام التام وانهار بذلك الاتحاد ونتج عن ذلك ثلاثة جمهوريات مستقلة جديدة هى: جورجيا التى أعلن قيامها فى ٢٦ مايو (أيار) ١٩١٨، وأرمينيا ثم أذربيجان بعدها بيومين اثنين فقط.

أما قبائل القوقاز الشمالى التى كانت تتوق بحرارة الى حريتها منذ أيام زعيمها الشركسى العظيم شامل، فقد أصدرت اعلاناً مشتركاً بالاستقلال فى ١١ مايو (أيار) ١٩١٨(٣٢).

وفى اقاليم ما وراء الفولجا، فقد حاول سكانها من التتار ان يؤسسوا استقلالا داخلياً. وفى أول مايو (أيار) ١٩١٧ وافق أول مؤتمر عام للروس المسلمين بأغلبية أصوات قدرها ٤٤٦ الى ٢٧١ صوت على اقامة اتحاد فدرالى مع روسيا مع الاحتفاظ باستقلال داخلى كامل فى جميع الشئون السياسية والثقافية لكل قومية من القوميات على اختلافها. ثم انعقد المؤتمر الثانى للروس المسلمين فى ٢١ يوليو (تموز) ١٩١٧ فى مدينة قازان وأيد القرار الذى أصدره المؤتمر الأول ودعاً الى اجتماع المجلس الوطنى فى مدينة أوفا فى ٢٠ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩١٧، وعين وزراء للشئون الدينية والتعليم والمالية كما تم وضع الأساس لأول حكومة تتمتع بالاستقلال الداخلى فى تتار الفولجا الوسطى(٣٣).

ولم يكن شعب تركستان أقل رغبة فى الحرية من غيره من الشعوب التى كانت قد ساقها المصير الى الخضوع لسيطرة الامبراطورية الروسية القيصرية، خاصة وانه لم يكن قد مضى وقت طويل على اخضاعه للسيطرة الروسية. وفى ٩ ديسمبر (كانون

---

(٣٢) فيروز كاظمزاده، "نضال بلاد ما وراء القوقاز..."، نيويورك: فيلوسونيكال لايبرارى، ١٩٥١، ص ١٠٥ وما يتبعها، ١٢١، ١٢٣–١٢٤. أنظر "تكوين الاتحاد السوفييتى..."، رتشارد بايبس، كامبردج، مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٥٤، ص ٩٣–١٠٦، ١٩٣–٢١٤. ومؤلف: لو كوكاز دى نور (القوقاز الشمالية)، باريس مكتب استعلامات حزب شعب جبال القوقاز، ١٩٣١، ص ٦.

(٣٣) بايبس، المرجع السابق ذكره، ص ٧٧–٧٨.

الأول) ١٩١٧ ، اجتمع مؤتمر اسلامى فى خوقند ونادى بالاستقلال الداخلى لتركستان (الجنوبية) داخل حدود التعاون مع جمهورية روسيا الديموقراطية الفدرالية، وأنشئت حكومة لتولى زمام الأمور فى المنطقة التى كان يحكمها فيما سبق الحاكم العام لتركستان. وفى نفس الشهر دعا حزب " اولاش اورطه " الى عقد مؤتمر للقازاق فى اودينبورج وهو المؤتمر الذى استمر انعقاده من ١٨ الى ٢٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧ والذى نادى بالاستقلال الداخلى لبلاد القازاق وعين حكومة شاركت مع حكومة تركستان وتعاونت معها الى حد ان محمد جان تينيشباى كان رئيساً لوزراء تركستان ووزيراً للداخلية فى حكومة " اولاش اورطه " فى القازاق فى نفس الوقت . وكذلك شغل مصطفى تشوكاى اوغلو منصب وزير الخارجية فى كلا الدولتين فى نفس الوقت(٣٤) .

يعيش الكوزاك فى أقاليم نهر كوبان ونهر تيريك فى القوقاز الشمالية وفى حوض نهر دون ونهر دونيتس وفى سهول الاستبس قرب الفولجا السفلى . ويعيش بعض الكوزاك أيضاً فى حوض نهر أورال شمال بحر قزوين، وهناك كوزاك اورينبوج فى سيبيريا الجنوبية الغربية، وتقيم جماعات أخرى منهم فى اقليم ما وراء بحيرة بايكال وعلى امتداد نهر امور. وبعد قيام الثورة البلشفية مباشرة، ظهرت الحركة الانفصالية بينهم . وحدثت ثلاث محاولات فى الفترة من عام ١٩١٧ الى ١٩١٩ لانشاء دولة مستقلة داخلياً تشمل أقاليم نهر دون ونهر كوبان ونهر تيريك . ولكن موسكو قضت على تلك المحاولات. وفى المرة الرابعة اجتمع مؤتمر للكوزاك اطلق عليه " المجلس الأعلى للدون وكوبان وتيريك " فى ٥ يناير (كانون الثانى) ١٩٢٠ فى مدينة ايكاتيرينوجراد . وبعد خمسة أيام أصدر المؤتمر قرار يقضى بتوحيد جميع المناطق الكوزاكية فى "جمهورية الكوزاك الفدرالية المستقلة". ولكن هذا القرار لم تتح له فرصة لكى يوضع موضع التنفيذ، إذ خسر الكوزاك الحرب ضد الجيوش السوفييتية(٣٥) .

وبالاضافة الى هذه الحركات الانفصالية الأربع الرئيسية التى قام بها الكوزاك فيما بين ١٩١٧–١٩٢٠، فقد وقعت محاولات فى مناطق أخرى من الامبراطورية القيصرية المنهارة قامت بها شعوب مختلفة فى الشرق الأقصى استهدفت استقلالا داخلياً، مثل شعوب باشكير وبوريات وغيرهم .

---

(٣٤) بايميرزا هايت (الحكومة الوطنية فى خوقند واولاش اورطه)، ميونيخ، نشرت فى مخطوط يدوى عام ١٩٥٠، ص ٥٩، ٦٥–٦٦، ٩٣–٩٤ .

(٣٥) ايجانت ا. بيلى، "نضال الكوزاك من أجل الحرية والاستقلال"، (لندن ١٩٥٤) ص ٢٣، ٢٥، ومؤلف "تاريخ الكوزاك" لايزاك ف. بيكادوروف، براغ، ١٩٣٠، ص ١٢١ .

ولكن الأحداث برهنت على ان سقوط قبضة موسكو لم تكن سوى ظاهرة وقتية، كما يتضح مما أبداه البلشفيك من تعاطف مع حركات احياء القوميات . فالبلاد التى تقع الى الغرب من روسيا مثل فنلندا واستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا هى وحدها التى استطاعت ان تحتفظ باستقلالها الوطنى ، وكان عليها ان تحارب الجيوش السوفييتية لكى تحقق ذلك . أما البلاد الواقعة على حدود روسيا الأخرى، فقد فقدت استقلالها الداخلى الذى كانت تنشده بمجرد ان استطاع البلشفيك تأمين أوضاعهم الداخلية والحصول على الفرصة لاعادة فتح المستعمرات والممتلكات القيصرية السابقة .

آراء لينين فى حق الشعوب فى تقرير مصائرها

لجأت جميع قوى الاستعمار فى العالم فى كل عصر وبدون استثناء الى استخدام حجج وتعليلات أيديولوجية مختلفة لمحاولة تبرير سياستها الاستعمارية تبريراً حضارياً واضفاء مسحة من الانسانية عليها. ففى القرن التاسع عشر مثلا كانت الحجة التى استند إليها المستعمرون هى تفوق الرجل الأبيض وواجباته نحو الشعوب الملونة أو الزعم بنشر دين أرقى. أما فى القرن العشرين فقد كانت الحجة هى ضرورة رفع المستوى الاقتصادى للأمم المتخلفة أو تقديم الخبرات والمساعدات التكنولوجية والعلمية والطبية والمالية .

وبالطبع لم يشذ الأستعمار الروسى عن غيره فى هذا المجال. ولقد أسس المستعمرون السوفييت مبررات سياساتهم الاستعمارية على فروض أيديولوجية مختلفة . وان ما تسمى " سياسة لينين بشأن القوميات " تبرز أهمية العمل الوطنى القومى وضرورة اتباع سياسة تتفق مع ظروف القوميات غير الروسية داخل الاتحاد السوفييتى.

لقد تعرض الكثير من المعلقين والمحللين السياسيين الى موضوع آراء لينين وسياسته بشأن القوميات بالتحليل والبحث والتعليق . وكان من ابرزهم فى هذا المضمار : شليزينجر وتوستر وبايبس وغيرهم(٣٦) . ولكنهم لم يهتموا الاهتمام الكافى بتصريحات وأقوال لينين الشخصية فى هذا الشأن وبتطور آرائه فى شأن القومية، وهو الأمر الذى يلقى ضوءاً هاماً على حقيقة سياسته ويكشف عن الكثير من غموضها .

---

(٣٦) رودولف شليزينجر ، "الفدرالية فى أوروبا الوسطى والشرقية" ، لندن : كيجان باول ، ترنش ترابنر ، ١٩٤٥ ، ص ٣١٩–٤١٤ ومؤلف "القوة السياسية فى الاتحاد السوفييتى، ١٩١٧–١٩٤٧" ، لجوليان توستر ، نيويورك : مطبعة جامعة أوكسفورد ، ١٩٤٨ ، ص ٥٠–١١٥ ومؤلف بايبس السابق ذكره ، ص ٣٤–٤٩ .

ان حجر الزاوية فى فلسفة لينين يقوم على نظرية " ما فوق القومية " والعداء للقومية. فقد كتب لينين فى عام ١٩١٣ يقول:

ان الماركسية لا يمكن ان تتفق مع القومية، حتى ولو كانت الأخيرة صائبة لا تعاب وتقدمية. ان الماركسية تتقدم على كل قومية كفكرة عالمية لادماج جميع الأمم فى مجموع أعلى...(٣٧) ان فكرة الثقافة القومية لهى فكرة برجوازية وغالباً ما تكون دجلا كهنوتياً. ان شعارنا يبقى دائماً هو: الثقافة العالمية الديموقراطية، والحركة العمالية العالمية الشاملة(٣٨).

وما ذكرناه هنا ليس الا نموذجاً لتصريحاته الكثيرة عن هذا الموضوع. لقد كانت آراء لينين كما صاغها هو بنفسه، لا تتقبل أى شكل من أشكال القومية. فمن أى أصل نبعت إذن تلك الأفكار التى أدت فيما بعد الى الاعترافات المتكررة بالحق النظرى للشعوب فى ان تنفصل عن الاتحاد السوفييتى وان تؤسس دولا قومية مستقلة؟ وحتى نستطيع ان نقدم إجابة على هذا السؤال، فيجب ان نرجع الى احداث الفترة من ١٩٠٥ الى ١٩١٤ وان نحاول الكشف عن أثرها فى افكار لينين.

لقد كان لينين ولا شك على علم ووعى بأن أهم عامل من العوامل التى أدت الى هزيمة روسيا القيصرية فى حربها ضد اليابان عام ١٩٠٥، هو صحوة الشعور القومى بين شعوب المستعمرات القيصرية. ففى فنلندا كانت المطالبة بالاستقلال الداخلى واعادة الدستور الفنلندى الذى كان قد عطل عام ١٩٠٢ تتزايد وتحدث ضغطاً قوياً على الأحداث. وفى بولندا كان النضال ضد الاحتلال الروسى قد اشتد واحتدت شوكته. أما فى بيلوروسيا وأوكرانيا فقد كان السخط والقلق قد عما وسادا. وثار الفلاحون فى جورجيا وأرمينيا واذربيجان على الملاك الاقطاعيين وعلى سياسة الظلم والاستبداد واضطهاد الوطنيين. وظهرت بين تتار الفولجا حركة اسلامية تطالب بالغاء القيود المفروضة على حقهم فى ممارسة شعائر الدين الاسلامى. وفى الوقت نفسه كانت الحركة الانفصالية بين النمسا والمجر تشتد وتنمو وكانت الامبراطورية العثمانية على وشك السقوط والانهيار التام، وكانت الحركات الوطنية التى تطالب بالاستقلال والسيادة الوطنية تنمو وتزداد فى الصين والهند وايران وأماكن أخرى عديدة فى العالم.

---

(٣٧) نيكولاى لينين، "سوبرانيه سوتشينينيى" (أعمال مجموعة)، موسكو ولينينجراد، ١٩٢٥، الجزء ١٩، ص ٣٩.

(٣٨) المرجع السابق، ص ٤٨.

ولا شك ان لينين كان يراقب كل هذه التطورات والأحداث عن كثب وكان يدرك أهميتها وأسبابها وآثارها. ولقد علق لينين على هذا الأمر فقال:

لقد بدأت مرحلة الثورة البرجوازية الديموقراطية فى أوروبا الشرقية وآسيا فى عام ١٩٠٥. ان الثورات التى قامت فى روسيا وايران وتركيا والصين، وحروب البلقان تشكل سلسلة واحدة من التطورات العالمية فى عصرنا. وليس إلا الأعمى هو الذى لا يستطيع ان يرى هذا العدد من الحركات القومية الديموقراطية فى هذه السلسلة من الأحداث، والاتجاه نحو انشاء... دول ذات استقلال وطنى(٣٩).

ومن خلال هذا الفهم والادراك لتلك الأحداث، يصل لينين الى الاستنتاج المنطقى التالى:

ان البروليتاريا الشيوعية فى جميع الدول فى حاجة الى ان تتعامل بحرص خاص مع تلك المشاعر القومية الخالصة التى تنتشر فى البلاد التى ذاقت مرارة الخضوع للسيطرة الأجنبية طويلا(٤٠).

ومع ذلك فان لينين لم يكن فى نيته على الاطلاق ان يتخلى عن إيمانه بفكرة العالمية والوحدة "فوق القومية" للشعوب. فان لينين يرى ان الحذر والتنازل ليس الا وسيلة للتعجيل باطفاء المشاعر القومية:

انه لمن الضرورى ان يكون هناك شيئاً من التنازل حتى يمكن التغلب على المخاوف والشكوك القومية بسرعة أكبر...(٤١) ان الدعاية التى يحدثها حق تقرير المصير لها أهمية كبرى فى مقاومة مرض القومية فى جميع أشكاله(٤٢).

وكان لينين يدرك ولا شك ان ٥٧٪ من مواطنى الامبراطورية القيصرية كانوا شعوباً غير روسية. ولذلك تراه يقول فى عام ١٩٠٦:

ان هذا الاتجاه الرجعى القوى الذى يمثله الروسى بوريشكيفييتش (كان هذا نائباً فى مجلس الدوما) سوف يؤدى الى زيادة واحتداد الميول الانفصالية بين الشعوب المستضعفة التى تمتعت فى بعض الأحيان بقسط أكبر من الحرية فى الدول المجاورة(٤٣).

---

(٣٩) المرجع السابق، ص ٩٩.
(٤٠) نفس المرجع السابق.
(٤١) المرجع السابق، ص ٢٢٢.
(٤٢) المرجع السابق، ص ٧٤.
(٤٣) المرجع السابق، ص ١٣٨.

ولينين فى الحقيقة مقتنع بأن الدعاية التى يتيحها حق تقرير المصير سلاح ينبغى استخدامه بحرص بالغ. وكان يؤكد دائماً ان الاعتراف بحق تقرير المصير لا يجب ان يفسر على أنه تشجيع للشعوب على الانفصال:

ان حق أمة فى تقرير مصيرها بنفسها... لا يجب ان نربط بينه وبين موضوع ما اذا كان مثل هذا الحق فى واقع الأمر شيئاً لائقاً. فهذا أمر يجب ان ينظر فيه فى كل حالة على حدة وفى ضوء الارتباط التام بمصالح الصراع الطبقى ومصالح البروليتاريا...(٤٤).

وفى نفس الموضوع تحدث لينين فى مناسبة أخرى بتفصيل أكثر وبدقة:

من المؤكد ان حق تقرير المصير شىء، وكون عملية تقرير المصير وانفصال أمة أو أخرى عملا لائقاً شىء آخر تماماً...(٤٥).

وفى الواقع العملى، كان القرار باللياقة أو عدم اللياقة يتخذ فى موسكو، وكان يأتى دائماً بعدم اللياقة. وحتى من الناحية النظرية، فقد كان لينين يعتبر مثل هذا الانفصال أمراً وقتياً وعابراً:

وكما ان الانسانية قد تحقق ذلك المثل الأعلى فى اذابة الطبقات فى بعضها بعد مرحلة انتقالية من دكتاتورية الطبقات المستضعفة، فان المثل الأعلى فى الاندماج الحتمى للأمم قد يتحقق، وإنما بعد مرحلة إنتقالية من التحرر الكامل لجميع الشعوب المستضعفة. وهذا يكون بحصولهم على حقهم فى الانفصال(٤٦).

ان آراء لينين فى خلال فترة الحرب الأهلية الروسية تحتل مكاناً خاصاً من الأهمية لما كان لها من تأثير على سير الأحداث فى تلك الفترة. فقد كانت الامبراطورية القيصرية السابقة تواجه فى ذلك الوقت التفكك والانحلال بسبب الحركات القومية الانفصالية التى قامت فى قلبها والتى كانت تزخر بالمشاعر المعادية لروسيا. ولم ينقذ المناطق النائية من الامبراطورية من الضياع من يد الروس الا تأييد البلشفيك لما يسمى مبادىء لينين بشأن القوميات ورفعهم لشعار الاعتراف بحق الشعوب فى الاستقلال. وبذلك أصبح عدد كبير من شعوب الامبراطورية الروسية لا يدركون ان هناك إمكانية للحصول على الاستقلال

---

(٤٤) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٤٥) المرجع السابق، ص ٧٣.
(٤٦) المرجع السابق، ص ١٥٨.

الكامل، نتيجة لخدعهم بالضمانات الكاذبة عن حقهم فى الاستقلال الداخلى. ولكن بعض الشعوب التى كانت أكثر ادراكاً ووعياً لم تنطل الخدعة عليهم ولم يثقوا لحظة واحدة فى نوايا البلشفيك وقاوموا بقوة السلاح ضم بلادهم بغير رغبتهم الى الامبراطورية السوفييتية الجديدة.

تأسيس الامبراطورية الاستعمارية السوفييتية

على النقيض من كل الادعاءات والشعارات الأيديولوجية التى تشدقت بها الحكومة البلشفية بمجرد توليها لزمام الأمور فى موسكو بعد الثورة، وعلى النقيض من جميع الوعود التى ضربتها على نفسها باحترام حقوق الشعوب فى تقرير مصائرها وحقوقها فى الاستقلال والحرية، وعلى النقيض من جميع الاتفاقات والمعاهدات التى ابرمتها بعدم الاعتداء وحسن الجوار، فانها قد سارت على سياسة اعادة فتح جميع أراضى الامبراطورية القيصرية السابقة من جديد بقوة السلاح. وبذلك بدأت مرحلة جديدة من مراحل الاستعمار الروسى، الا وهى مرحلة الاستعمار السوفييتى. وكانت تلك الحروب الاستعمارية الجديدة التى شنها الروس البلشفيك على شعوب المستعمرات الامبراطورية القيصرية السابقة بقصد الابقاء على تلك المستعمرات تحت السيطرة الروسية لها صفات خاصة. وأولى تلك الصفات هى استخدام جميع أشكال القوات المحاربة ــ النظامية وغير النظامية ــ ثم اثارة الحرب الطبقية ورفع شعارات الماركسية اللينينية بقصد اخفاء الأهداف الاستعمارية لهذه الحروب العدوانية الصارخة والباسها قناعاً يحمل ملامح إخلاقية وأيديولوجية كاذبة.

لقد فشلت محاولات الروس البلشفيك لاعادة فتح أراضى الحدود الغربية حينما تراجع الجيش الأحمر أمام الجيش البولندى الحديث التكوين (بمساعدة الفرنسيين). أما دول البلطيق وفنلندا واينجيريا فقد كانت قريبة جداً من بيتروجراد وكانت أضعف بكثير من ان تستطيع صد الغزو.

أما استقلال بيلوروسيا فقد كان أقصرها عمراً على الاطلاق. فلم يكد المؤتمر البيلوروسى (لاعلان الاستقلال) ينعقد فى ٨ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٧، حتى داهمته الجيوش الروسية فى اليوم الثلاثين من نفس الشهر. ولكن المؤتمر استطاع ان يجتمع مرة أخرى فى اليوم التالى للغزو تحت حماية عمال السكك الحديدية، وانتخب

المندوبون مجلساً يمثل سيادة الشعب ومنحوه تفويضاً مطلقاً وعينوا هيئة تنفيذية. ولكن اضطرت القيادة الوطنية بأكملها الى الاختفاء والعمل فى السر(٤٧).

وفى أوكرانيا تصارعت عدة اتجاهات سياسية مختلفة على السلطة. ولكن هذا الصراع تركز فى جوهره بين القوميين الذين كان تنظيمهم رديئاً — والمركزيين ذوى الميول الروسية — وكان تنظيمهم أقوى ويتلقون التأييد من الجيش الأحمر. وبسقوط خاركوف فى يد الجيش الاحمر فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠، انتهت تلك الجمهورية الوليدة(٤٨). وأدى سقوط أوكرانيا الى القضاء على الانفصاليين فى بيسارابيا والقرم.

وكانت جورجيا هى الجمهورية الوحيدة من بين الجمهوريات المستقلة، باستثناء تلك التى فى الشمال الغربى، والتى استطاعت ان تقاوم الغزو. فقد اضطر البلشفيك الى الاعتراف باستقلالها فى ٧ مايو (أيار) ١٩٢٠ بعد ان فشلوا مرتين فى ضربها. ثم حصلت جورجيا على اعتراف دولى باستقلالها حينما اعترف المجلس الأعلى للحلفاء فى ٢٧ يناير (كانون الثانى) ١٩٢١ باستقلال أربع عشر دولة كانت جورجيا من بينهم. ولكن الجيش الأحمر لم ينتظر طويلا وبدأ هجومه على جورجيا بعد ذلك ببضعة أسابيع، فى ١٦ فبراير (شباط) من نفس السنة، متجاهلا بل محتقراً هذا الاعتراف الدولى. وتقدم الفيلق الحادى عشر من الجيش الأحمر بقيادة ضابط قيصرى سابق اسمه هيكر عابراً الحدود متجهاً الى تفليس مباشرة، بينما قامت قوات الخيالة التابعة للفيلق الثالث عشر بقيادة سيميون بودينى بغزو جورجيا من جهة الشرق. وبعد معارك دموية حول تفليس اضطر الجورجيون الى التقهقر الى باطوم تحت وطأة العدد الهائل لقوات الجيش الأحمر. وبذلك فقدت جورجيا استقلالها الحديث(٤٩).

وجرى إعادة فتح أرمينيا فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٠ كنتيجة مباشرة للمفاوضات بين الاتحاد السوفييتى وتركيا. وكانت جمهورية أرمينيا فى بادىء الأمر تعتمد على حماية تركيا لها. ولكن الاتراك تركوا للروس يداً مطلقة فى أرمينيا مقابل استرداد منطقة كرس التى كانوا قد فقدوها مع الامبراطورية القيصرية عام ١٨٧٨. وانتهز البلشفيك فرصة الأوضاع اليائسة فى أرمينيا ليمارسوا لعبتهم فيها. فقد طلبوا من حكومة أرمينيا ان تسلم زمام الحكم الى الشيوعيين. وجاء هذا الطلب فى صورة إنذار مصحوب فى نفس الوقت

---

(٤٧) مينسكى، المؤلف السابق ذكره، ص ١٣.
(٤٨) بايبس، المؤلف السابق ذكره، ص ١٤٨–١٤٩.
(٤٩) الكسندر تسومايا، "القضية الجورجيانية"، صوت جورجيا الحرة (نيويورك)، رقم ١، يناير (كانون الثانى) ١٩٥٣.

بدخول الفيلق الحادى عشر قادماً من أذربيجان الذى احتل العاصمة يريفان. ولم يكن أمام سلطات جمهورية أرمينيا المستقلة فرصة ولا خيار(٥٠).

أما أذربيجان فقد كانت لها فى نظر البلشفيين أهمية خاصة بسبب حقول النفط الغنية فى باكو. ولذلك كانت جمهورية أذربيجان المستقلة أول دولة من بين دول ما وراء القوقاز تتعرض لعملية الغزو. ففى ٢٧ ابريل (نيسان) ١٩٢٠، قام جيش سوفييتى هائل العدد والعدة بقيادة الجنرال ليفاندوفسكى بغزوها ووضع خاتمة لاستقلالها. وكانت جمهورية القوقاز الشمالية التى تقع على الطريق من روسيا الى جورجيا واذربيجان، وكان يدافع عنها جيش روسى أبيض بقيادة الجنرال انطون دينيكين، قد سقطت فى يد قوات الجيش الأحمر بقيادة ميخائيل توخاتشيفسكى(٥١).

ولم تكن جمهوريات التركمان المستقلة داخلياً بأسعد حظاً من غيرها. وحل بها نفس المصير على يد قوات الجيش الأحمر. فقد قامت قوات مكونة من جنود الحرس القيصرى السابق مع متطوعين من الروس المستوطنين فى بلاد التركستان بتولى هذا الأمر. وفى ١٣ فبراير (شباط) ١٩١٨، تم احتلال خوقند وتلتها اورينبورج. وفى ١٨ مارس (آذار) من نفس السنة سقطت حكومة اولاش اورطه فى قازاخستان. ولكن شعب تركستان لم يستسلم ولم يفرط فى استقلاله دون مقاومة. وقامت حرب عصابات ضد الحكم الروسى العائد الى البلاد وانتشرت المقاومة فى جميع أنحاء بلاد التركستان. ولكن استطاع الروس فى نهاية الأمر القضاء على تلك المقاومة نهائياً باتمام احتلال بقية أراضى التركستان، حيث تم لهم فى سبتمبر (أيلول) ١٩٢٠ احتلال امارة بخارى السابقة وخانية خيوه بقوات من الجيش الأحمر بقيادة ميخائيل فرونزه(٥٢).

ولم تكد تلك الحروب التى بدأت فى عام ١٩١٧ فى بيلوروسيا واستمرت حتى عام ١٩٢١ فى جورجيا، لم تكد تنتهى حتى تبعتها حملة انتقام وحشية ضد زعماء وقادة الانفصاليين. وتم القضاء على جميع أنواع المقاومة للسيادة والتسلط الروسى بهدف فرض النظام الاقتصادى الشيوعى وتطبيق السياسة الاجتماعية الشيوعية وفرض السيطرة المطلقة لجهاز الحكم المركزى فى موسكو على كل أرجاء البلاد.

---

(٥٠) بايبس، المؤلف السابق ذكره، ص ٢٢٩–٢٣٣، ومؤلف "الجالية الأرمنية"، (نيويورك، فيلوسوفيكال لايبرارى، ١٩٥٥)، ص ٢٤٢–٢٤٣.

(٥١) بايبس، المؤلف السابق ذكره، ص ٢٢٣، ٢٢٩، ومؤلف "اذربيجان فى كفاحها من أجل الاستقلال"، لمحمد أمين رسول زاده، وارسو، ١٩٣٨، ص ٦٦–٧٠.

(٥٢) هايت، المؤلف السابق ذكره، ص ٩٩–٨٨١.

الاعتبارات الاقتصادية فى السياسة الاستعمارية السوفييتية

لقد كشفت الثورة البلشفية والحرب الأهلية التى أعقبتها عن ان روسيا كانت تعتمد على مستعمراتها اعتماداً كبيراً فى النواحى الاقتصادية. ويقول مؤرخ اقتصادى مرموق، ان نقصاً هائلا أصاب روسيا فى تلك الفترة فى كل أنواع الخامات والمواد الأساسية كالفحم وخامات المعادن والقطن والبترول... حتى الحبوب والمواد الغذائية الأخرى. ثم يقول ان المصانع كانت قد تعطلت وكان الناس يتضورون جوعاً(٥٣).

ويعبر زينوفييف عن الحالة فى ذلك الوقت بقوله، ان استرجاع مصادر الثروة التى ضاعت وعودة الحياة الى الاقتصاد الوطنى لأمر بالغ الأهمية. ثم يقول أنه ينبذ سياسة الاستغلال، ولكن الأمور لا يمكنها ان تستوى بدون بترول أذربيجان أو قطن تركستان، فهذه المنتجات بالغة الأهمية لروسيا. وروسيا ينبغى الا تلعب دور المستغل السابق، إنما هى الآن الأخ الأكبر الذى يحمل مشعل التقدم والحضارة.

أما ستالين فقد تناول هذا الأمر بلباقة موضحاً ان أقاليم الحدود الغنية بالمواد الخام والوقود والمواد الغذائية، هى من وجهة النظر العسكرية أكثر المناطق تعرضاً للهجوم وليس باستطاعتها ان تدافع عن نفسها وان تحمى استقلالها بدون روسيا. وفى الوقت نفسه فان روسيا ليس باستطاعتها ان تحافظ على قوتها بدون مساعدة أقاليم الحدود هذه(٥٤).

وحتى عام ١٩٢٤ كان الروس قد تمكنوا من استرجاع جميع أجزاء الامبراطورية التى كانت قد انفصلت، وتم لهم لم شملها من جديد واعادة الحياة الى الكيان الاستعمارى القيصرى القديم ولكن فى هيئة جديدة تحمل صورة المساواة فى الحقوق بين جميع الشعوب. وما ان حل عام ١٩٣٩ حتى كان هذا النظام قد اتضحت صورته وتكشفت ملامحه الحقيقية. وبعد حوالى عشرين عاماً من استقرار الحكم السوفييتى، شهدت الأراضى الروسية الأصلية (وهى الأراضى التى تشكل جمهورية روسيا الحالية والتى لم تعتبر يوماً ما من المستعمرات)، شهدت تركيزاً قوياً فى جميع الصناعات الهامة، بينما بقيت الجمهوريات المستقلة (وهى المستعمرات القيصرية السابقة) كمورّد أساسى للمواد الخام والمنتجات

---

(٥٣) التاريخ الاقتصادى الوطنى للاتحاد السوفييتى، "س.س.س.ر." لبيتر ا. لاشتشينكو، ٣ اجزاء، موسكو، ١٩٥٢–١٩٥٦، الجزء ٣، ص ٦٦.

(٥٤) الفريد كوبان، "تقرير المصير الوطنى"، المعهد الملكى للشئون الدولية، ١٩٤٥، ص ١٠٧–١٠٨.

نصف المصنعة. فكانت بلاد التركستان وبلاد ما وراء القوقاز تنتج القطن، والقوقاز يورد النفط، والاراضى السوداء فى أوكرانيا وبلاد ما وراء الفولجا وغرب سيبيريا وقازاخستان تنتج الحبوب واللحوم، والفولجا السفلى تنتج الاسماك، أسماك فى الجنوب وأخشاب فى الشمال(٥٥).

وفى عام ١٩٢٨ قرر مخططو السياسة السوفييتية البدء فى تصنيع أقاليم الحدود تصنيعاً جزئياً بطريقة تعيد الى الأذهان ذلك النوع من الصناعات التى كانت دول الاستعمار الغربى تسمح به فى مستعمراتها فى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. وقامت سياسة التصنيع هذه على مبدأ التخصص الاقليمى. وكان المطلوب من كل اقليم ان يحصر انتاجه فى حدود موارده الطبيعية وامكانيات بيئته، وهو الأمر الذى كان من شأنه ان يزيد من ارتباط تلك البلاد بموسكو وان يدعم السياسة الاستعمارية الاقتصادية الاستغلالية. وهذا بالفعل ما تمثله أمامنا صناعات القطن والنسيج فى الاتحاد السوفييتى.

فى السنوات التى أعقبت عام ١٩١٧، كانت صناعة النسيج الروسية، وهى التى كانت تتركز فى ذلك الوقت حول موسكو، فى حاجة ماسة الى القطن الخام. وكانت لهذه الحاجة من الأهمية والضرورة ما جعل رئيس حكومة جمهورية تركستان يأمر بمصادرة جميع محاصيل القطن فى البلاد ومعاقبة كل من يمتنع عن تنفيذ هذا الأمر بالاعدام(٥٦). وتنفيذاً لهذا الأمر قام رجال الميليتسيا وجنود الجيش بالاستيلاء على كل ما كانوا يصادفونه من أقطان، لا فى مخازن القطن وحدها بل وفى فراش ووسائد دور تجار ومزارعى القطن.

وبعد ذلك قررت موسكو تصنيع القطن جزئياً فى تركستان، وذلك فى اطار تنظيم إنتاج صناعات الأقطان حتى تمنع تكرار حدوث ذلك العجز مرة أخرى. ويوجز الكساندر فيرسمان هذه الخطة فيما قاله عام ١٩٣١:

كان تصنيع آسيا الوسطى أمراً لا مفر منه من أجل القطن وحده. فالاقطان الجديدة تحتاج الى أسمدة صناعية، أى الفوسفات والنيترات والبوتاس... والصناعات الكيمياوية تحتاج الى طوب البناء والطوب الحرارى، والماكينات والموتورات تحتاج الى الوقود، والسكك الحديدية تحتاج الى الفحم...(٥٧).

---

(٥٥) نيكولاى ن. بارانسكى، "الجغرافيا الاقتصادية للاتحاد السوفييتى"، موسكو، ١٩٥١، ص ١٠٢، ١١١–١١٢، ٤١٧، ٤٢١.

(٥٦) س. ب. جينسبورج، "الباسماتشى فى فرغانه"، نوفى فوستوك، موسكو، رقم ١١–١٢، ١٩٢٥، ص ١٨٤.

(٥٧) فيكتور فيتكوفيتس، "رحلات فى اوزبكستان السوفييتية"، موسكو، مولودايا جفارديا، ١٩٥٣، ص ١٥.

وعلى هذا الحال كان انشاء محالج الاقطان ومعامل الكيمياء وحفر آبار البترول ومد خطوط السكك الحديدية وشق الترع والقنوات للرى، كان كل ذلك مرهون باحتياجات الصناعة الروسية المركزية. ومن أجل هذا الهدف، شوّه النمو الطبيعى لاقتصاد تركستان، وخفض انتاج الحبوب والحاصلات الغذائية الأخرى الى أدنى حد ممكن من أجل زرع مساحات أوسع من القطن الذى أعطيت له وحده جميع الاعتبارات. وما ان تحولت تركستان الى مجرد مورد أقطان لصناعات النسيج الروسية، حتى أصبحت مرتبطة بروسيا ومعتمدة عليها اعتماداً كبيراً للحصول على احتياجاتها الضرورية من الحبوب والمواد الغذائية الأخرى، وصارت تعيش تحت تهديد المجاعة لو نقص محصول الحبوب الروسى أو كنتيجة لخطة معينة متعمدة من موسكو للضغط على البلاد.

ويؤكد هذه العلاقة الاستعمارية الخالصة التى يقوم عليها اقتصاد تركستان، استحواز روسيا على صناعة النسيج، حتى بعد ان أنشئت صناعة نسيج متواضعة فى تركستان تحت وطأة ظروف الحرب العالمية الثانية وفى اطار الخطة الاستراتيجية التى كانت تهدف الى الحد من المركزية فى الصناعة. وحتى بعد ذلك كان ٨٠٪ من إنتاج تركستان من القطن الخام يصدر الى روسيا، و ٢٠٪ فقط يصنع محلياً(٥٨).

وحدث شبيه ذلك فيما يختص بصناعة البترول الذى يحصل الاتحاد السوفييتى على ٩٠٪ منه من الجمهوريات الاسلامية فيه. وصناعة البترول ترتبط ارتباطاً كاملا بقوة الدولة وحاجاتها العسكرية. وكان من جراء تركيز المسئوليات والسلطات الادارية المتصلة بصناعة البترول فى يد موسكو، ان حدثت فى أحيان كثيرة حالات عجز فى الانتاج تبعث على الضحك. فكثيراً ما كانت دور الحكومة المحلية فى باكو فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية لا تجد الكيروسين اللازم لها. وكانت طوابير طويلة من البشر تصطف أمام مراكز توزيع الكيروسين التى تقع فى ظلال أبراج حقول البترول.

ولما أظهر الغزو الألمانى لروسيا ضعف استراتيجية التركيز الصناعى الضخم، وبعد التغيير الذى أحدثه اكتشاف الطاقة الذرية فى التخطيط الجغرافى السياسى للعالم، قام الروس بنقل صناعاتهم الى أماكن متفرقة وبعيدة مثل مناطق الاورال الشرقية وتركستان. ولكن هذا لم يكن إلا من أجل مصالح الدولة وفائدتها، وجاء بالضرر والاذى على النمو الاقتصادى المحلى العادى وعلى فرص تحسين ظروف ومستويات المعيشة.

---

(٥٨) بارانسكى، العمل السابق ذكره، ص ٤١٦.

وحتى بعد تنفيذ هذه السياسة الجديدة، بقيت جمهورية روسيا السوفييتية هى صاحبة الحظوة فى الصناعة السوفييتية . إذ تنتج ما يبلغ ٧٠٪ من مجموع الانتاج الصناعى وتستهلك الجزء الأكبر من التيار الكهربائى فى الاتحاد السوفييتى بأكمله . وفى روسيا تقوم صناعة الآلات الميكانيكية والصناعات المعدنية والكيميائية وصناعة النسيج. وتمد "مستعمراتها" بالسيارات والطائرات والقاطرات وعربات السكك الحديدية وقطع الغيار والاصباغ والألوان ولوازم الطباعة .

الأوجه الديموغرافية فى السياسة الاستعمارية السوفييتية

يشيع فى الاتحاد السوفييتى رأى بان الروس عنصر متفوق يتمتع بثقافة أرقى ويحظى بنضج سياسى أكبر من شعوب الاتحاد السوفييتى الأخرى. وليس هناك من شك فى ان ذلك الأمر شىء طبيعى ما دام الروس تتاح لهم فرص أحسن فى التعليم وفى العمل. ان قسماً كبيراً من سكان المدن الروسية عمال فنيون ومهرة واخصائيون وموظفون اداريون . ويطبق الروس فى الاتحاد السوفييتى سياسة ترمى الى حرمان شعوب المستعمرات، وهم الشعوب غير الروسية، من أفضل أبنائها الذين قد يساهمون فى رفع مستوى هذه الشعوب. فالمتفوقون من أبناء شعوب المستعمرات الذين يفدون الى المدن الروسية الكبرى مثل موسكو او لينينجراد، تجرى لهم عملية اذابة ثقافية واجتماعية داخل الأمة الروسية، ويجرى تشكيلهم فى قوالب خاصة للخدمة فى المراكز الصناعية بعيداً عن أوطانهم .

وفى الوقت نفسه، فان السياسة القيصرية القديمة لتشجيع استيطان الروس فى أراضى المستعمرات، سارت فى طريقها دون توقف، وبدأ المستوطنون الروس، وهم الأقوى اقتصادياً وسياسياً، يفوقون الأهالى الأصليين فى العدد، حتى فى المراكز الصناعية . ثم بدأت موسكو تولى عناية كبيرة بتوطين الفلاحين فى الأراضى الجديدة فى الشرق والجنوب، وجميعها كانت أراضى بكر أو أراضى بور، وجزء كبير منها غير ملائم من ناحية الطقس للزراعة . وأخذت عملية تعمير الأراضى فى الشرق الأقصى وفى سهول القلمون وتركستان والقوقاز الشمالية تتسع اتساعاً هائلا فى العهد السوفييتى. وانشىء فى الفترة بين ١٩١٧ حتى ١٩٤٧ — ٥٠٨ مدينة جديدة، منها ٢٠٩ خارج روسيا. وفى نفس

المدة أنشىء ٢٨٣٠ مستوطنة عمالية على نظام المدن، وكان ما يقرب من نصفها فى مناطق خارج روسيا. وانشىء فى تركستان وحدها ٢٣٠ منها. وحتى المدن التى أنشئت فى روسيا فى تلك الفترة، وهى ٢٩٩ مدينة جديدة، فأكثرها يقع فى جهات تسكنها عناصر غير روسية أو عناصر مختلطة (٥٩).

ولقد اكتسبت حركة الاستيطان هذه قوة ونشاطاً كبيرين وكانت تسير فى ازدياد مستمر ودون توقف وباقبال شديد. وفى التقرير الذى قدمه نيكيتا خروشتشوف فى ١٤ فبراير (شباط) ١٩٥٦ الى المؤتمر العام العشرين للحزب، تحدث عن أهمية "ترويض" الأراضى البكر فى قازاخستان وسيبيريا ومناطق أخرى من الامبراطورية (٦٠). وليس هناك ما يدعو الى الشك فى ان عملية استيطان الروس وعملية ترويس العنصر فى المناطق غير الروسية سوف تستمر وتسير قدماً بلا توقف بل وبسرعة أكبر.

ولقد لجأت السلطات السوفييتية الى سياسة أخرى لتعمير المناطق غير المرغوبة التى لا تجذب إليها المهاجرين طوعاً بسبب طبيعة أرضها أو طقسها، وخصوصاً فى سيبيريا الشمالية. وانشئت هناك معسكرات للعمل يقضى فيها المحكوم عليهم بالسجن مدة العقوبة. وعند حلول موعد الافراج عنهم، لا يسمح لهم بمغادرة المنطقة ويرغمون على البقاء والمعيشة فيها. وفى بعض الأحيان كان أفراد وعائلات بل وشعوب بأكملها تنفى الى تلك المناطق، وكان منهم المعتقلون السياسيون وأسرى الحروب وبعض أفراد الشعوب المضطهدة التى ساقها سوء الطالع للسير فى فلك الاتحاد السوفييتى مثل المجر وبلغاريا.

ولقد أقر الكثير من النزلاء السابقين فى تلك المعسكرات والذين استطاعوا الفرار عبر الحدود، بأنه حتى فى معسكرات السخرة هذه، كان هناك تفرقة حادة بين الروس وغير الروس. وتحدث هؤلاء المعتقلون السابقون عن الكراهية العميقة التى تمتلىء بها قلوب العمال المسخرين نحو الروس. وهم فى ذلك لا يفرقون بين الحكم الشيوعى والروس بوجه عام. ومن المعتقد ان هذه العداوة السافرة تعكس شعوراً عاماً يسرى فى جميع أرجاء المستعمرات السوفييتية (٦١).

أنه كثيراً ما تنتقد قوى الاستعمار فى العالم لأنها ساهمت فى القضاء على شعوب بأكملها وانقراضها عن طريق الابادة أو عن طريق الاستغلال الاقتصادى أو نشر الكحوليات

---

(٥٩) والتر كولارز، "روسيا ومستعمراتها"، نيويورك، مؤسسة فريدريك ا. بريجر، ١٩٥٢، ص ١٣–١٤.
(٦٠) "المؤتمر العام العشرون للحزب الشيوعى السوفييتى"، من جزئين، موسكو، ١٩٥٦، الجزء الأول، ص ٥٧.
(٦١) دافيد ج. دالين و بوريس ا. نيكولايفسكى، "العمل الإجبارى فى روسيا السوفييتية"، نيو هافن، مطبعة جامعة يل، ١٩٤٧، ص ١٦.

والمخدرات بينها . أما الاتحاد السوفييتى فقد لجأ الى وسائل أكثر صراحة بل وبدائية لتحقيق هذا الغرض . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، ولكن القليل منها يكفى . ففى الثلاثينات من القرن العشرين، كان تعداد الأقلية البولندية التى تعيش فى أوكرانيا وبيلوروسيا يبلغ ٢٠٠ ٠٠٠، وهؤلاء تم ترحيلهم بالاكراه الى سيبيريا وتشتتوا بين خليط السكان هناك . وحدث نفس الشىء لأهالى مقاطعة مادتشليفسكى ذات الحكم الذاتى (كانت هذه المقاطعة تقع فى أوكرانيا بين مدينتى زفياهيل وزهيتوميل) وتم ترحيلهم وهم البالغ عددهم ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة الى سيبيريا . وهناك ضاعوا بين خليط السكان(٦٢) .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية، قامت الحكومة السوفييتية فى الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ بتصفية الكثير من الأقاليم غير الروسية ذات الحكم الذاتى، وترحيل شعوبها الأصلية الى مناطق أخرى بعيداً عن أوطانهم . ففى عام ١٩٤١ الغيت جمهورية ألمان الفولجا السوفييتية ذات الحكم الذاتى، وتم ترحيل شعبها البالغ عدده ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة، ينتمون جميعاً الى العنصر الألمانى، الى سيبيريا وتاجيكستان وقازاخستان الشمالية . وفى عام ١٩٤٥/٤٤ لقى شعب جمهورية القرم السوفييتية ذات الحكم الذاتى نفس المصير، وكان تعداده يبلغ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة . وكذلك شعب جمهورية القلمون السوفييتية ذات الحكم الذاتى (١٣٥ ٠٠٠) وشعب جمهورية تشيشين انجوش (٥٠٠ ٠٠٠) وشعب مقاطعة قاراتشاى السوفييتية ذات الحكم الذاتى (٧٥ ٠٠٠)، لاقت جميعها نفس المصير وتم إبعادها عن أوطانها الأصلية الى مناطق متفرقة فى سيبيريا وغيرها من المناطق النائية فى ظل ظروف غير إنسانية تنطق بالوحشية والقسوة . ولقد اعدم عشرات من الناس لأنهم رفضوا ان يتركوا أراضيهم ومنازلهم التى ولدوا وعاشوا فيها كما عاش فيها آباؤهم وأجدادهم من قبلهم . وهناك آلاف آخرين ماتوا فى الطريق أثناء ترحيلهم(٦٣) . ومما هو جدير بالذكر ان السلطات السوفييتية كانت قد أعلنت فى عام ١٩٤٧ ان الاحياء الباقين من القوقازيين الذين كان تعدادهم قبل نفيهم يبلغ ٧٥٠ ٠٠٠ نسمة، سوف يسمح لهم بالعودة الى أوطانهم فى عام ١٩٦٠ . ولكن كلمة واحدة من هذا القبيل لم تذكر فى شأن تتار القرم أو ألمان الفولجا(٦٤) .

---

(٦٢) فلودزيميرز باسكوفسكى، "البولنديون فى روسيا الحمراء"، ميسل بولسكا، رقم ١١/٣٣، ١٩٣٧ .
(٦٣) كولارز، المؤلف السابق ذكره، ص ٦٧–٨٧، ١٨٦–١٩١ .
(٦٤) وليام ج. جوردون، "السوفييت وعودة ٧٥٠ ٠٠٠ منفى الى مناطق القبائل فى القوقاز"، نيويورك تايمز، ١٢ فبراير (شباط) ١٩٥٧ .

ولقد تحدث الكثيرون عن أعمال النفى والتشريد المماثلة التى تعرض لها عدد كبير من شعوب ليتوانيا ولاتفيا واستونيا وكاريليا الفنلندية، والذين حل محلهم لأسباب سياسية سكان جدد من الروس.

الاستعمار السوفييتى كنظام سياسى

عند تحديد خواص الاستعمار، تكون أهم صفة للعلاقة الاستعمارية هى خضوع المستعمرة سياسياً الى السلطة الامبريالية. وهذا الأمر ينطبق على الاتحاد السوفييتى تماماً كما انطبق من قبل على الامبراطورية القيصرية. فالقرارات السياسية كان مصدرها دائماً موسكو. وكان الروس دائماً هم المتحكمون فى شئون غير الروس، ولم يسمحوا — لا فى العصر القيصرى أو فى العصر السوفييتى — لشعوب المستعمرات بفرصة لاختيار حكامهم أو ألبت فى أمورهم بأنفسهم. فقد كانت دكتاتورية أبدية فى كل العصور، ويتساوى فى ذلك القياصرة أو الحزب الشيوعى.

ومن الطبيعى ان تكون جمهورية روسيا الاشتراكية الفدرالية السوفييتية فى موقف الصدارة بين جميع جمهوريات الاتحاد السوفييتى الأخرى، وان تتولى القيادة السياسية والثقافية والاقتصادية. فانها بحجمها الهائل الذى يشغل أربعة أخماس مساحة الاتحاد السوفييتى بأكمله، وبامكانياتها البشرية الكبيرة (٦٠٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفييتى) أصبحت سيطرتها على شئون الجمهوريات الأخرى أمراً متوقعاً(٦٥). وهذه السيطرة لم يكن من الممكن فرضها الا عن طريق علاقة استعمارية.

ان الجمهوريات الاتحادية الخمس عشر الأخرى التى تحيط بروسيا من جهتى الجنوب والغرب، ليست فى واقع الأمر الا عرائس تحركها أيدى الروس. ان حقهم الدستورى الذى يمنحهم "حرية الانفصال عن الاتحاد السوفييتى" (المادة ١٧)، مثله كباقى حقوقهم الدستورية الاخرى، مسألة نظرية فقط ولا أكثر من حبر على ورق. والدستور نفسه قد نفى هذا الحق فى المادة ١٤ التى أحالت جميع السلطات العليا الى الحكومة السوفييتية الفدرالية. بل ان "الحكم الذاتى" التى تتمتع به الجمهوريات المستقلة هو أيضاً فى الواقع مسألة نظرية فقط. فالمادة ٢١ من الدستور السوفييتى لا تقر الا

(٦٥) بارانسكى، المؤلف السابق ذكره، ص ١٠٠–١٠١.

بجنسية سوفييتية واحدة. والمادة ١٣٣ تنص على ان الحاق الضرر بقوة الدولة جريمة "تطبق عليها أقصى عقوبة فى القانون باعتبارها أبشع جريمة".

ان هذه الجمهوريات فى حقيقة الأمر لا تتمتع الا بالحد الادنى من السلطة حتى فيما يتعلق باتفه الأمور. فان مشروعات بناء جسر فى بشكيريا أو مد أنابيب لتوصيل المياه فى تفليس أو تسيير ترولى باص فى نالتشيك أو بناء مدرسة أو مستشفى فى تاجيكستان أو بناء دار الأوبرا فى اشقباد يجب ان تحصل على موافقة موسكو قبل ان تخصص لها الاعتمادات المالية اللازمة(٦٦).

ومما لا يمكن انكاره ان مظاهر الحياة فى الجمهوريات المستقلة تختلف بعض الشىء عنها فى روسيا نفسها. فالناس يتحدثون فى حرية بلغاتهم الوطنية التى تدرس فى مدارس المرحلة الأولى والثانوية الى حد ما. ولكل جمهورية علمها الخاص ونشيدها الوطنى وشعارها الوطنى. ولها كذلك دستورها الخاص وادارتها الحكومية المحلية، بل ولها حدود وهمية مرسومة بدقة وعناية على الخرائط السياسية للاتحاد السوفييتى. كما ان الأهالى الوطنيين يشغلون المناصب الحكومية من أصغرها الى أكبرها. ولكن هناك سيطرة روسية كاملة موجودة وتمارس بلا انقطاع من خلف تلك الواجهة المزيفة. فالسلطة الحقيقية فى أيدى "المندوبين" الروس. تراهم قابعين خلف مكاتبهم بعيداً عن الأنظار، ولا يظهرون للجمهور الا فى النادر القليل. ولكنهم هم الحاكمون بأمرهم فى البلاد، فهم الحكومة وهم الحزب وهم وحدهم أصحاب المسئولية أمام موسكو وفى نظرها.

ولقد لعب الحزب الشيوعى دوراً حاسماً فى تأسيس الامبراطورية السوفييتية. لقد كان الشيوعيون الروس أقل اعتقاداً بفكرتى "فوق القومية" و"اللاروسية" مما كانوا يعلنون عنه ودعوا العالم الى الاعتقاد فيه. ففى أول مراحل تأسيس الاتحاد السوفييتى كانت طبقة العمال الصناعيين من سكان المدن السوفييتية، "البروليتاريا الصناعية"، يغلب فيها العنصر الروسى أكثر مما عليه الحال الآن. وحتى فى المناطق الأكثر تقدماً ورقياً مثل أوكرانيا، فقد كانت غالبية العمال من سكان المدن من الروس، بينما كان الأوكرانيون فى غالبيتهم فلاحون. وفى المناطق الأقل تقدماً مثل تركمانستان، كان واحد من كل أربعة من الروس من السكان عاملا صناعياً، بينما كان واحد من كل خمسين تركمانياً عاملا صناعياً.

وهكذا كان من المنطقى تماماً ان تكون نسبة الروس فى الأحزاب الشيوعية فى الجمهوريات غير الروسية فى الاتحاد السوفييتى عالية جداً. ففى عام ١٩٢٣ كانت نسبة الروس بين

---

(٦٦) الازفستيا والبرافدا، ١٨–٢١ يونيو (حزيران) ١٩٥٠، كما نقلها ستيفان كينج هول، "ذا كومونيست كونسبيراسى" (المؤامرة الشيوعية)، لندن، كونستابل، ١٩٥٣، ص ١٦٩–١٧٠.

أعضاء الحزب الشيوعى الأوكرانى ٥٢٪، بينما كانت نسبة الأوكرانيين أنفسهم ٢٣٪ فقط. وفى عام ١٩٢٤، كانت نسبة القازاق فى منظمات الحزب فى قازاخستان هى ٥٪ فقط(٦٧). ولا شك ان هذه الملاحظة كانت تقلق بال الكرملين كثيراً. ولذلك فقد حاول على مر السنين ان يقلل من تلك الفروق التى تقف حاجزاً بين الحكام الروس وبين شعوب المستعمرات. فاتبع سياسة اضفاء "الطابع المحلى" على الحزب وعلى الجهاز الحكومى فى الجمهوريات. وزاد عدد غير الروس فى تلك المجالات زيادة كبيرة. ولكن نسبتهم الى مجموع السكان ظلت برغم ذلك أقل من نسبة الروس. كما ان هذه الزيادة كانت تافهة جداً فى بعض الجمهوريات. ففى جمهورية القيرغيز مثلا، كانت نسبة القيرغيزيين بين العمال الصناعيين حتى نهاية عام ١٩٤٩ هى ١٨٪ فقط، وفى دوائر التخطيط والمالية والتجارة كانت نسبتهم ٢٧٪ فقط، وحتى فى الزراعة كانت ٢٨٪(٦٨).

ويظهر عدم التوازن هذا فى النسبة بشكل واضح فى الوظائف الحكومية. فالمناصب الادارية العليا ووظائف الخبراء غالباً ما تكون حكراً للروس. وباستثناء جمهوريتى أرمينيا وجورجيا اللتين يشغل الأهالى فيهما عدداً لا بأس به من الوظائف الهامة فى الحزب والحكومة، فان الروس هم السادة الوحيدون فى الامبراطورية. وقد يمكن القول بأن هذه السيادة الروسية لم يكن فى الامكان تحاشى وقوعها فى السنوات الأولى من قيام الحكم السوفييتى(٦٩)، ولكن ان يكون هذا الوضع لا يزال قائم حتى الآن، فهو الشىء الذى لا يمكن الا ان يكون دليل اتهام للاستعمار الروسى. فالروس يحتفظون لأنفسهم منذ البداية، وخاصة فى السنوات الأخيرة، بمعظم مراكز القيادة فى أجهزة الأمن والقضاء وفى وزارات الداخلية والعدل والدفاع والخارجية. ان معظم جنرالات وقواد الجيش السوفييتى من العنصر الروسى. والتمثيل الدبلوماسى الخارجى يكاد يكون مقصوراً على الروس وحدهم منذ أوائل الثلاثينات وحتى الآن(٧٠).

وهناك تساؤل عما إذا كان هؤلاء الشيوعيون الروس هم فى أصلهم قوميون روس وجدوا من الاوفق لهم ان يسمون أنفسهم شيوعيين، أم أنهم شيوعيون دوليون اتفق انهم كانوا روساً. والرد على هذا التساؤل هو أنهم روس أولا وأخيراً ودائماً. ولقد أدرك لينين

---

(٦٧) هانزكون، "القومية فى الاتحاد السوفييتى"، لندن ١٩٣٣، ص ٧٣.
(٦٨) سوفيتسكايا قيرغيزيا، "فرونزه دايلى"، ٢٩ اكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٩، كما نقلها كينج هول، العمل السابق ذكره، ص ١٧٠.
(٦٩) كون، العمل السابق ذكره، ص ٧٣–٧٤.
(٧٠) توستر، المؤلف السابق ذكره، ص ٣٤٠.

هذه الحقيقة وكان يحار كيف يتعامل مع هؤلاء القوميين الروس الذين يروحون ويغدون فى ثياب الشيوعية . ولقد هاجم لينين هذه الظاهرة قبل موته بعامين وقال : " ان الشوفينى (الوطنى المتعصب) الروسى العظيم يعمل فى داخل الكثير منا. ويجب علينا ان نقاتله "(٧١). لقد كانت اذا معركة خاسرة، فرحاها لم تزل تدور دواماً .

وفى واقع الأمر، فان تناول مسألة التسلط الروسى بطريقة إحصائية قد يكون توجيهاً خاطئاً، فمن الواجب أيضاً ان نبين ان جميع أعضاء الحزب الشيوعى ذوى المناصب الهامة من غير الروس، قد مروا بعملية تحويل عميقة من خلال التعاليم الشيوعية والترويس الكامل. وكان قبولهم للثقافة الروسية عاملا هاماً لحصولهم على مراكز هامة فى الحزب أو فى الجهاز الحكومى. ولقد أظهر عدد قليل من هؤلاء الأعضاء غير الروس تمسكهم والتحامهم الذى لا ريب فيه بالمعتقدات والقيم الثقافية الروسية وولاءهم للنظام السوفييتى مع ان دورهم الأول كان هو التظاهر بأنهم يمثلون مجتمعاتهم الوطنية فى ثقافتهم الوطنية تمثيلا كاملا. وكان واجبهم الذى كلفهم به الحزب هو ان ينفذوا خلال الجماعات المتشككة من غير الروس ويكسبونهم الى جانب الحكم الشيوعى. بل ان غير الروس الذين كانوا يشغلون مراكز هامة فى الحزب أو فى الحكومة، صدرت إليهم تعليمات بأن يظهروا انتماءهم الى ثقافتهم الوطنية المحلية وان يتحدثوا علناً بلغاتهم الوطنية المحلية .

وهكذا نرى ان زعماء الشيوعيين الذين من أصل غير روسى، صاروا فى واقع الأمر شوفينيين روس من أصل حليف، وتمتعوا — كأشخاص مستروسين — بجميع صفات الوطنى الغيور المتحمس . لقد انتقد لينين مرة ستالين ودزيرزينسكى واوردزنيكيدزه بسبب معاملتهم للشيوعيين القوقازيين ووصف هؤلاء القوقازيين بأنهم روس أصلاء . ومن المؤكد ان هؤلاء الرجال ليسوا روساً ولكنهم " مستروسين "، وهم كما وصفهم لينين أيضاً: " أنهم دائماً يتطرفون فى التعبير عن خلقهم الروسى الأصيل "(٧٢).

أنه لمبدأ قائم فى الاتحاد السوفييتى، ان المستروسين الصادقين والمؤمنين بالسوفييتية وحدهم هم الذين يمكن ان ينالوا قدراً من الأهمية فى أجهزة الحكومة والحزب الشيوعى. أما المشكوك فى ولائهم وإيمانهم الصادق بالثقافة الروسية والسوفييتية، فانهم يتهمون بالشعوبية والقومية البرجوازية ولا يلبثون ان يطردوا من مراكزهم ويضطهدون أو يحكم عليهم بأحكام

---

(٧١) لينين، المؤلف السابق ذكره، الطبعة الثالثة، الجزء ٢٤، ص ١٥٥ .
(٧٢) نفس المرجع السابق .

قاسية ليكونوا " عبرة لغيرهم " . وبالتالى، فان ازدياد العناصر المحلية على حساب العنصر الروسى لا يعنى على الاطلاق ضعف التسلط الروسى داخل النظام السوفييتى.

من الصفات المميزة للحكم الاستعمارى فى بلد ما معارضة الأهالى الوطنيين لهذا الحكم ورفضهم الخضوع للسيطرة الاستعمارية . وتعبر الشعوب المقهورة عن هذه المعارضة فى أشكال شتى كالثورات أو الانتفاضات الثورية والنشاط السياسى المعارض والمقاومة السلبية أو الكراهية الشخصية، وذلك حسب ما تسمح به ظروف كل شعب . ومما يستحق الاهتمام ان جميع أشكال المعارضة هذه نراها واقعة فى الاتحاد السوفييتى.

فلقد ظهرت مقاومة شعوب المستعمرات السوفييتية فى الفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٣١ فى صورة المقاطعة وعدم التعاون أو العصيان المسلح وحرب العصابات. وفى جورجيا اندلعت فى عام ١٩٢٤ ثورة مسلحة عارمة استمرت عدة شهور قبل ان تستطيع موسكو سحقها بواسطة الجيش وبواسطة جماعات البوليس السرى. وفى عام ١٩٣١/٣٠ نظم القوقازيون مقاومة شاملة ضد الاستبداد السوفييتى وفرض نظام الملكية الجماعية بالاكراه . وكذلك اندلعت حرب العصابات فى تركستان وسيطر الثوار على المناطق المنعزلة لفترات غير قصيرة حتى عام ١٩٢٤ . وبعد ذلك قامت ثورات على فترات متقطعة حتى عام ١٩٣١ . واستمرت أوكرانيا تغلى بالغضب لعدة سنوات بعد عام ١٩٢٠ الى ان اندلعت الثورة من جديد عام ١٩٢٨ واستمرت حتى عام ١٩٣١ . هذه أمثلة ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، لعدد كبير من الأحداث المماثلة التى وقعت فى الاتحاد السوفييتى فى تلك الفترة .

لقد منعت السلطات السوفييتية أى نشاط سياسى منعاً باتاً واعتبرته خروجاً على القانون يستحق أشد العقوبات . وبهذا لم يبق للشعوب المقهورة متنفس للتعبير عن استيائها من السيطرة الاستعمارية غير الكراهية الشخصية للطغيان والطغاه . وان حملات التطهير الشاملة العديدة التى شنتها موسكو على أهالى المستعمرات لأكبر دليل على هذه الكراهية للحكم السوفييتى. اين ابراهيموف وأعوانه فى القرم؟ واين سلطان غالييف وزملاؤه التتار؟ ومنظمة تحرير أوكرانيا؟ ان جميع هذه الحركات التى قاومت الحكم الاستبدادى السوفييتى قد أمدت ساحات الاعدام ومعسكرات السخرة بآلاف الضحايا من الوطنيين الشرفاء (٧٣).

---

(٧٣) بايميرزا هايت، "تركستان فى القرن العشرين"، دارمشتات، دار س. ف. ليسكه للنشر، ١٩٥٦، ص ١٧٣ وما يتبعها، "وتاريخ أوكرانيا"، و ا. ألين، (كامبريدج، مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٤٠)، ص ٣١٧ ما يتبعها.

وفى خلال الحرب العالمية الثانية انضم الى القوات الألمانية التى هاجمت الاتحاد السوفييتى عدد كبير من العناصر غير الروسية، والفوا فرقة أجنبية وحاربوا ضد الجيوش السوفييتية حتى النهاية المريرة متعطشين الى تحرير أوطانهم أو لمجرد الثأر من الروس. إذ ان كراهيتهم للشيوعية كمبدأ وللحكم السوفييتى قد اقترنت بكراهيتهم لكل ما هو روسى.

الدول التابعة للاتحاد السوفييتى كمستعمرات

قبل ان نختم مناقشة موضوع الامبراطورية الاستعمارية السوفييتية، فمن الواجب ان نبحث أمر تلك الأمم " المستقلة " فى أوروبا الشرقية وفى آسيا، التى كثيراً ما يقال عنها انها توابع تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى، وان نتحقق مما إذا كانت هذه الأمم مستقلة حقاً أم أنها فى واقع أمرها مستعمرات سوفييتية.

ومن المعروف جيداً ان يوغسلافيا، وتيتو على رأسها، قد انفصلت عن المجموعة السوفييتية نتيجة لخلاف عنيف فى الرأى حول هذه النقطة بالتحديد. فان تيتو لم يسمح لموسكو ان تكون مصدر القرارات الحساسة الخاصة بيوغسلافيا، ولم يقبل ان تستغل بلاده اقتصادياً. ولذلك فقد قبل بتلك المخاطرة الهائلة متحدياً موسكو وجبروتها وانسحب من المجموعة السوفييتية، وان كان قد أبقى على دكتاتورية شيوعية وطنية فى بلاده.

وتؤكد لنا هذه الواقعة بالذات ان هناك استعمار يبسط أذرعته كالاخطبوط حول دول أوروبا الشرقية الاخرى التى لم تساعدها ظروفها على الخلاص من هذه المحنة كيوغسلافيا بسبب موقعها الجغرافى أو وضعها العسكرى. فهذه بلغاريا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وألمانيا الشرقية وهى الدول التى لا تملك خياراً وتحولت الى مستعمرات سوفييتية.

فمن الناحية السياسية، لا تملك هذه الدول ان تتخذ قراراً ما بدون موافقة موسكو، وأجهزة الأمن فيها ساهرة على القضاء على أى ميل نحو الانفصال عن الكتلة السوفييتية، وتنزل العقاب الرادع على كل من يحاول ان يعبر عن سخطة على تلك الأوضاع الشائنة وذلك الاستقلال المزعوم.

ومن الناحية الاقتصادية، فان الروس قد نهبوا تلك البلاد وحولوها الى قطع من الكيان الصناعى السوفييتى، مما كان له أبلغ الضرر على النمو والتطور الاقتصادى الذاتى لهذه الأمم وعلى مستوى معيشة شعوبها ورفاهيتها.

ومن الناحية الديموغرافية، فان السوفييت يطبقون سياسة ترمى الى تحويل هذه البلاد الى توابع ترتبط الى الأبد بالاتحاد السوفييتى. ومن لا يرضى من قادتها بما تراه موسكو يعدم أو ينفى الى خارج تلك البلاد. وشبابها يرسل الى موسكو ليتعلم الروسية ولكى يلقن العلوم التكنولوجية التى تتفق مع المصالح السوفييتية وتخدمها. أما الاعتقالات والنفى والابعاد بالجملة فهى مسلطة فوق رؤوس العباد ترهبهم وتقتل فيهم الروح الوطنية والحرية فى أوساطهم.

ولذلك فقد كان من المتوقع ان تؤدى سياسة الاتحاد السوفييتى فى هذه البلاد الى حدوث قلاقل واضطرابات وانتفاضات شعبية وطنية. ولقد ظن البعض من المراقبين ان القبضة الحديدية التى يسيطر بها الروس على التعليم وعلى شئون الشباب سوف تجعل الجيل الجديد لا يشارك الجيل القديم فى نفوره وكراهيته للأوضاع القائمة. ولكن الأحداث كذبت هذا الظن. والمجر تعطينا مثالا واضحاً على ذلك، بجانب تشيكوسلوفاكيا.

ومن ناحية أخرى فاننا نرى بولندا قد أخذت تتحرك تدريجياً نحو استقلال فى الأمور الداخلية حسبما تسمح به الفرص. ويبدو انها ستسمر فى هذا المسار اذا سمح لها السادة السوفييت بذلك. ولكن حكم البولنديين لأنفسهم لا يزال حديثاً جداً — خاصة فى وجود الجيوش السوفييتية على الأراضى البولندية — حتى تقدم بولندا على معاملة الاتحاد السوفييتى معاملة "الند للند".

ملاحظات ختامية

وخلاصة القول، فان الاستعمار الروسى، سواء القيصرى أو السوفييتى، يشابه الاستعمار الغربى فى مراحله المبكرة فى أوجه كثيرة. ولكن أساليب الاستعمار الغربى ونظمه أخذت فى التغير من زمن بعيد، واتجهت تدريجياً ولكن بثبات نحو الأخذ بقيم وأساليب إنسانية وأفكار تحررية طيبة. فأخذت بنظام الوصاية والتطور نحو الحكم الذاتى. وإذا كان الاستعمار الغربى قد مارس فى بعض الأحيان أساليباً وحشية فظه، فان ذلك لا يهم كثيراً ما دام ان فكرة الحرية والكرامة والانسانية والمثل الديموقراطية قد وجدت طريقاً الى عقول الناس، سواء الحكام أو المحكومين. فان هذه الأفكار قد أيقظت تلك الشعوب من سباتها العميق، بعد ان كان قد طال نومها ورقادها فى ظلام التخلف، ثم أخذت

تتطلع بتأثير تلك الأفكار الى الاستقلال أو الى الحكم الذاتى وسعت إليه . وفى معظم الحالات، انتهى الأمر بتسليم قوى الاستعمار الغربى بهذه المطالب، راضية أو كارهة .

ولكن الحال ليس كذلك مع الامبراطورية السوفييتية . فالنظام القيصرى والنظام الماركسى كلاهما لم يسمح الا بالقليل من التطلعات نحو القيم والمثل الديموقراطية . والاباطرة البلشفيك قد حرموا أى حديث عن الاستقلال الحقيقى لهذه المستعمرات بادعائهم الكاذب وتظاهرهم بأنه ليس هناك مستعمرات أو شىء من هذا القبيل، والأمر لا يعدو ان يكون مشاركة اختيارية بين شعوب حرة تملك حق الانفصال .

ومنذ الفترة التى بدأت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبحت تلك الاختلافات بين نوعى السيطرة الاستعمارية فى العالم (الاستعمار الغربى والاستعمار السوفييتى) دليلا لا تخطئه العين. فالاستعمار الغربى كان فى طريقه نحو الزوال، بينما الاستعمار السوفييتى استمر فى طريق النمو فى الحجم وفى القوة . وانه لمن المستحيل الآن انكار هذه الحقيقة، باستثناء أولئك الذين يقرنون الاستعمار بالرأسمالية بدون تمييز، ويبرئون ساحة القوى الشيوعية من أى اتهام، أو أولئك الذين يرفضون عن قصد ان يواجهوا الحقيقة لأسباب تخصهم .

التركيب الاجتماعى للحزب

بقلم: باروخ هازان

ان الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى هو القائد الموجه للدولة السوفييتية والمجتمع السوفييتى فى المسائل النظرية والقانونية. وهو يتألف من نخبة مختارة تشمل ٥–٦٪ من مجموع السكان، تحكم باسم البروليتاريا التى يفترض ان ارادتها تعلو كل إرادة. ويسمى الحزب بالاضافة الى ذلك "حزب العمال" الذى:

ليس له أية مصالح غير مصالح الطبقة العاملة . . . و (هو) يتبصر المسيرة التاريخية للطبقة العاملة فى جملتها ويبذل الجهد عند كل منعطف فى تلك المسيرة ليحمى مصالح... الطبقة العاملة فى مجموعها. والحزب الشيوعى هو... الجزء الأكثر تقدماً من الطبقة العاملة، (الذى) يوجه جماهير البروليتاريا . . . خلال الطريق القويم(١).

وحيث ان لينين كان قد رفض فكرة المنشفيك التى دعت الى تنظيم (سياسى) يضم كل فئات الشعب، وفضل عليها حزب صغير العدد، محكم النظام، مكون لأجل الأغراض التآمرية، فقد تمسك الحزب الشيوعى بوجهة النظر القائلة بأن يشكلون نخبة مختارة من العمال "المتقدمين" يتم اختبارهم طبقاً لأعلى مستويات الأعداد السياسى والولاء للحزب.

والموضوع الرئيسى الآن هو: من هم أولئك "القلة المختارة" الذين يسمح لهم بالانتظام فى صفوف الحزب؟ والمصادر السوفييتية شديدة الحرص فيما تعلنه من أرقام، فالبيانات التى يمكن الحصول عليها من هذه المصادر لا تبين أكثر من العدد الكلى لأعضاء الحزب، وتركيبه الاجتماعى، وعدد الخلايا، وعدد الأشخاص المسموح لهم بالانتساب للحزب أو الحصول على عضويته كل عام . . . الخ. وهذه الأرقام تبدو من النظرة الأولى شديدة التأثير، وتغرى المرء على الاعتقاد فيما يروجون له من أوهام ويوافق

---

(١) "برافدا"، ٣٠ يوليو (تموز)، ١٩٢٠، كما نص عليه فى "المؤتمر الدولى الثانى للشيوعيين، وكما ذكرته وشرحته الجريدة الرسمية لروسيا السوفييتية"، مكتب مطبوعات الحكومة، واشنطن، ١٩٢٠، ص ٨٨.

على ان الحزب الشيوعى السوفييتى فعلا هو " حزب البروليتاريا " . ولكن الحقيقة تختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

فى عام ١٩٦٧ نشرت جريدة برافدا مقالة عنوانها " طليعة الشعب : الحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى بالأرقام "، وورد فى هذه المقالة أنه حتى أول يناير (كانون الثانى) ١٩٦٧ كان ٣٨,١٪ من الأعضاء العاملين والأعضاء المنتسبين فى الحزب من العمال و ١٦٪ من الفلاحين (الكولخوزنيك) و ٤٥,٩٪ من الموظفين وفئات أخرى(٢). وإذا تفحصنا هذه الأرقام، فهل يا ترى سنتعلم شيئاً يفيد فى فهم التركيب الاجتماعى للحزب؟ وحتى إذا كانت هذه الأرقام بالفعل صادقة وكان ٣٨,١٪ من مجموع أعضاء الحزب من العمال، فهى لا تشير الى النسبة المئوية للعمال المنتمين للحزب (من مجموع العمال فى الاتحاد السوفييتى) ؟ ان البيانات التى أذاعتها المصادر السوفييتية تعطى النسب المئوية لكل من الفئات الاجتماعية داخل الحزب ولكنها لم تبين على الاطلاق نسبة الشيوعيين فى هذه الفئات .

ولنفترض مثلا ان منطقة ما يوجد بها ١٠ آلاف عضو فى الحزب، منهم ٤٠٪ من العمال و ٣٠٪ من الفلاحين و ٣٠٪ من الموظفين وفئات أخرى. فان هذا يعنى ان أغلبية أعضاء الحزب فى هذه المنطقة من العمال وهم ٤ آلاف. ولنفترض ان تعداد العمال بين سكان هذه المنطقة هو ١٠٠ ألف عامل، بينما تعداد الفلاحين فيها ٢٠ ألف، والموظفين ٥ آلاف، وبذلك يكون الحاصل هو ان ٤٪ فقط من العمال فى هذه المنطقة أعضاء فى " طليعة البروليتاريا "، بينما تكون نسبة الشيوعيين بين الموظفين — وهم الانتليجينسيا فى الحقيقة — هى ٦٠٪، وهذا بالتأكيد يغير شكل الصورة تغيراً كاملا .

وفرضنا هو أنه : برغم الحقيقة ان ٣٨,١٪ من أعضاء الحزب الشيوعى من العمال، فان نسبة الشيوعيين بين العمال نسبة ضئيلة لا يعتد بها . وان ما يسمونه " طليعة البروليتاريا " يتكون أساساً لا من العمال ولكن من الأشخاص القادرين على مساعدة الحزب على الاحتفاظ بسيطرته الكاملة على وسائل الاعلام وعلى عقول الناس .

وأثبات صحة هذا الفرض ليس من الأمور السهلة، لأن الحكومة السوفييتية والحزب لا يذيعان أية معلومات من شأنها ان تفيد، ومن المستحيل ان يدخل شخصاً ما الاتحاد السوفييتى معلناً رغبته فى دراسة التركيب الاجتماعى للحزب، ثم أنه من الخطر ان يدخل المرء الاتحاد السوفييتى بحجة ما ثم يبدأ فى التنقيب (بحثاً عن الحقيقة) . وهكذا لا يبقى

(٢) "برافدا"، ١٠ اكتوبر (تشرين الأول)، ١٩٦٧، ص ٢ .

للمرء شيئاً ليفعله سوى ان يمكث فى داره ويعكف على ما لديه من بيانات محاولا الحصول منها على ضالته .

ولنأخذ من عام ١٩٦٤ مثلا. فطبقاً لما نشرته صحيفة " بارتئينايا جيزن " فى مقالة عن " الحزب الشيوعى بالارقام "، كان عدد الأعضاء العاملين والأعضاء المنتسبين فى الحزب حتى أول يناير (كانون الثانى) ١٩٦٥، هو ١١ ٧٥٨ ١٦٩، منهم ٣٧,٣٪ من العمال، ١٦,٥٪ من الفلاحين (الكولخوزنيك)، ٤٦,٢٪ من الموظفين وفئات أخرى. واوضحت المقالة أيضاً ان عدد المتعلمين من الأعضاء العاملين والأعضاء المنتسبين فى تلك السنة (١٩٦٤) قد بلغ ١ ٧٦٣ ٢٦٢، أى أن ١٥٪ من مجموع الأعضاء العاملين والأعضاء المنتسبين فى الحزب قد (اتموا) تعليماً عالياً . وان عدد من (لم يتموا) تعليماً عالياً قد بلغ ٣٠١ ٢٥٥، أى ٢,٦٪[٣].

وينبغى هنا ان نربط بين هذه البيانات وبين بيانات أخرى مماثلة عن مجموع السكان فى البلاد . فطبقاً لما أذاعه مصدر سوفييتى آخر، كان تعداد سكان الاتحاد السوفييتى آنذاك (١٩٦٤) قد بلغ ٢٣٠ مليون نسمة، ٥ مليون و ٦٠٠ ألف منهم أى ٢,٤٤٪ (اتموا) تعليماً عالياً[٤]. (يلاحظ ان هذه البيانات لا تشمل مرحلة الدراسة الثانوية لأن السن فيها تقل عن السن المشروط لعضوية الحزب.) وبعملية حسابية يمكننا ان نتبين الآتى فيما يختص بمن (اتموا) تعليماً عالياً :

أولا، كانت نسبتهم بين مجموع السكان ٢,٤٤٪ و بينما هى بين الأعضاء فى الحزب ١٥٪ .

ثانياً، ان نسبة الشيوعيين بينهم كانت ٣١,٥٪ . ثم بنفس الطريقة يمكننا ان نتبين الآتى فيما يختص بمن (لم يتموا) تعليماً عالياً : أولا، كانت نسبتهم بين مجموع السكان ٢,٦٪ .

ثانياً، ان نسبة الشيوعيين بينهم كانت ١٢,٧٪ .

ولنتناول الموضوع الآن بمعيار للأوضاع الاقتصادية الاجتماعية . وحسب ما ذكره المصدر السوفييتى الثانى، كان " العمال والموظفون " فى عام ١٩٦٤ يشكلون ٧٥٪ من تعداد السكان فى الاتحاد السوفييتى. وذكر هذا المصدر ان ٢٥٪ من السكان يقومون بأعمال (ذهنية)، يعنى " المثقفين "[٥]. والاستنتاج الطبيعى من هذا، هو أن " العمال "

---

(٣) "بارتئينايا جيزن"، ١٩٦٥، العدد ١٠ .

(٤) "الاقتصاد الشعبى للاتحاد السوفييتى فى ١٩٦٤ : كتاب الاحصاءات السنوى"، موسكو، ١٩٦٥، ص. ٣٣.

(٥) نفس المرجع السابق.

يشكلون ٥٠٪ من مجموع السكان . وإذا كان تعداد سكان الاتحاد السوفييتى فى هذا العام (١٩٦٤) هو ٢٣٠ مليون، فان عدد العمال فى المجموع هو ١١٥ مليون . وهنا مرة أخرى يمكننا بعملية حسابية ان نتبين الآتى :

أولا، نسبة العمال الى تعداد السكان بالتقريب ٥٠٪، فى حين ان نسبتهم الى عدد الأعضاء العاملين والأعضاء المنتسبين فى الحزب كانت ٣٧,٣٪ .

ثانياً، ان نسبة الشيوعيين بين العمال كانت ٣,٦٪ وهى نسبة ضئيلة بشكل لا يصدقه العقل.

وهكذا فان ٣,٦٪ فقط من العمال فى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٦٤ هم الذين انتموا الى " طليعة البروليتاريا " والى حزب " العمال "، فى حين بلغت نسبة من اتموا تعليماً عالياً بين أعضاء الحزب ٣١,٥٪ . وهناك استنتاجات أخرى هامة يمكن استخراجها بالفحص الدقيق لما تنشره الصحافة السوفييتية، فمثلا فى عام ١٩٦٧، ذكرت صحيفة " ليتيراتورنايا جازيتا " ان ٥٤,٧٪ من أعضاء اتحاد الكتاب للاتحاد السوفييتى شيوعيين (منتمين للحزب)(٦). ومن السهل ان نقارن بين هذه النسبة وبين النسبة المئوية للشيوعيين من العمال التى ذكرناها وهى ٣,٦٪، فان ذلك يساعدنا على الاستنتاج السليم .

هذه الأمثلة توضح انه بفحص الاحصاءات التى أذاعها الشيوعيون أنفسهم، يسهل على المرء ان يقارن بين التركيب الاجتماعى للحزب وبين التركيب الاجتماعى للشعب السوفييتى ككل، وهو ما يؤكد ان الحزب مهتم بحشد المثقفين وليس العمال فى عضويته، أى أنه يفضل من يستطيعوا مساعدته للاحتفاظ بسيطرته على جموع الشعب .

---

(٦) "ليتيراتورنايا جازيتا"، ٢٥ مايو (أيار)، ١٩٦٧ .

عرض وتحليل لأهم الأحداث

عادة الافراط فى شرب الخمر يستفحل أمرها فى الاتحاد السوفييتى

تهتم دول وهيئات دولية كثيرة بالبحث عن مسببات عادة الافراط فى شرب الخمر، باعتبارها آفة اجتماعية تعرقل تقدم المجتمعات، وتتلمس طريقها للقضاء عليها، أو على الأقل، للحد منهـا. ومع انها مشكلـة اجتماعية ذات صبغة عالمية، الا انها حالة خاصة فى الاتحاد السوفييتى، حيث ان الزيادة المتواصلة فى استهلاك الكحوليات وفى عدد مدمنى الخمر قد بلغت حداً خطيراً.

ولأكثر من خمسين سنة والقادة السوفييت وفقهاء الحزب لا يكلون من ترديد القول بأن النظام الاشتراكى، بتغييره للظروف الاجتماعية السيئة التى تدفع الناس الى شرب الخمر، هو وحده الكفيل بأن يضع حداً نهائياً لعادة الافراط فى شرب الخمر، التى لا تزيد عن كونها من مخلفات الماضى الرأسمالى. ومع ذلك فاننا نرى الصحافة السوفييتية تتحدث بقلق واضح عن تلك الظاهرة وانتشارها الخطير حتى بين النساء وغير البالغين والأطفال، وتعلن صراحة ان جميع الاجراءات التى اتخذها القادة السوفييت للحد منها قد باءت بالفشل التـام. وجاء فى سوفييتسكـايا روسيا ان كثيراً من المقـالات التى تهتم بهذا الأمر، وخطابات القراء القلقين، والتصريحات الغاضبة عن قضية ادمان الخمر، قد نشرت أخيراً فى الصحف. وهذا أمر طبيعى. فالافراط فى شرب الخمر شر يعكر صفو حياتنا، ويتسبب فى أذى عظيم لمجتمعنا وصحته الاخلاقية. يجب تعبئة جميع القوى فى مجتمعنا — واعلان حملـة قومية ضد هـذا الشر" (سوفييتسكـايا روسيا، ٩ يوليو [تموز]، ١٩٦٩).

ونقل كاتب تلك المقالة بعض العبارات التى وردت فى خطاب بعثته إليه معلمة فى احدى مدارس الأطفال اسمها ا. س. ليتشنكو تقول فيها انها طلبت من تلاميذها الاجابة كتابة عما يفهمونه من كلمتى السعادة والشقاء. فكانت إجابة الكثيرين منهم ان " الشقاء هو حين يعود الأب الى البيت مخموراً ثم يبدأ فى ضرب الأم ويطردنا من البيت. والسعادة هى حين يكون فى وعيه والأم لا تبكى، ويكون من الممكن ان نستذكر دروسنا فى سلام ".

وتحدثت صحيفة "كومسومولسكايا برافدا" عن انتشار هذه العادة السيئة بين آباء تلاميذ المدارس الثانوية، وطالبت بالقيام بعمل أكثر حسماً ضد هذه الآفة الاجتماعية، محذرة من انها تولد عداءاً صامتاً عميقاً فى نفوس النشأ نحو آبائهم (كومسومولسكايا برافدا، ٣١ يناير [كانون الثانى]، ١٩٦٩). ثم تقول الصحيفة أنه أصبح أمراً معتاداً ان يرى السكارى ممددين على الأرض أو متعلقين بسور فى الحدائق العامة وحتى فى الشوارع، وخصوصاً فى أيام صرف الأجور والاعياد... وحتى النساء فقد أخذت هذه العادة تنتشر بينهن، وكثير من العاملات والفئات يعتبرنه أمراً طبيعياً بل مستحباً ان يسرن مخمورات مترنحات فى النوادى والمجتمعات (كومسومولسكايا برافدا، ٢٠ مايو [أيار]، ١٩٦٩).

" ان الفتيات ما يلبثن ان يعدن من أعمالهن الى بيوت الفتيات حتى يشرعن فى نوبة الشرب حتى الثمالة. أما اللاتى لا ترغبن فى المشاركة فى حلقات الشرب، فان باقى الفتيات تصفهن بأنهن وطنيات" (نفس المرجع السابق).

ولقد أظهرت الأبحاث ان ما يقرب من ٧٥٪ ممن يشربون الخمر، يبدأون به وهم لا يزالون تلاميذاً فى المدارس وبموافقة آبائهم. (كومسومولسكايا برافدا، ٥ يناير [كانون الثانى]، ١٩٦٨).

ثم تحدثت الصحيفة عن العلاقة بين الخمر والجريمة ضاربة المثل بما بينته محاكمة عصابة لصوص من الصبية الذين سطوا على ما يقرب من عشرين مسكناً فى فترة شهرين، وارتكبوا عدداً آخر من الجرائم الخطيرة، وكانت أعمارهم تتراوح بين ١٤–١٦ سنة فقط. وكان الدافع الوحيد لما ارتكبوه من جرائم، كما ثبت، هو " التعطش الى الخمر" الذى جعل شعار حياتهم " اسرق واسكر، ثم اسرق ثانية واسكر"، هذا هو فلك حياتهم (كومسومولسكايا برافدا، ١٨ ابريل [نيسان] ١٩٦٩).

وبرغم ان الاحصاءات السوفييتية تحاول اخفاء حقيقة التزايد الثابت فى استهلاك الكحوليات، بوضعها ضمن مواد غذائية أخرى، الا ان الفحص الدقيق لهذه الاحصاءات

يبين ان استهلاك الكحوليات قد زاد بمقدار الضعف خلال السنوات العشر الأخيرة. فقد بلغ مقدار المبيعات الكحولية فى عام ١٩٦٧ فى الاتحاد السوفييتى ما يبلغ ثمنه ١٩ مليون و ٥٠٠ ألف روبل، بينما كان فى عام ١٩٥٨ ما بلغ ثمنه ٩ مليون و ٦٠٠ ألف روبل (الاقتصاد السوفييتى فى ١٩٥٨، كتاب الاحصاءات السنوى، موسكو ١٩٥٩، صفحة ٧٢٥؛ نفس المرجع موسكو ١٩٦٧، صفحة ٧٢٠).

وتحاول الصحافة السوفييتية فى مجال بحثها عن أسباب تلك الآفة الاجتماعية، ان تتحاش الاشارة الى تعاليم الماركسية اللينينية فى شأن علاقة ظاهرة الاقبال على الخمر بعيوب فى تركيب النظام الاجتماعى، وتصر على ان تنحوا باللائمة على "مخلفات الرأسمالية" و "تركة الماضى". ولكن هذا لم يمنع الكاتبة ن. الكساندروفنا المتخصصة فى المشاكل الاجتماعية ان ترى ان هذه النظرية صحيحة الى حد ما، ولكن "إذا كان الماضى وحده هو المخطىء، فان كثيراً من الخطايا والاوزار سوف تنحل عن رقابنا. ان الماضى قد ولى منذ زمن سحيق . . . ان الجانى الحقيقى هو العقل الذى لا يفكر والتطلعات الثقافية المحدودة. انها حلقة مفرغة — الفراغ يقود الى الفودكا والفودكا تقود الى الفراغ" (ازفستيا، ٢ مارس [آذار]، ١٩٦٨).

هذا، ويتفق راى الكثيرين من رجال القانون السوفييت، والمعلمين، وعلماء الاجتماع، والاطباء على ان عملا عاجلا لا بد ان يتم، وان جميع الاجراءات التى نفذت بهدف إيقاف انتشار هذا الداء الخبيث، لم تؤدى الى أى نتيجة ايجابية، "كيف يكون هناك أى حديث عن الفعالية إذا كان عدد من أقلعوا عن الادمان فى بيلوروسيا، مثلا، لم يزد عن ٢٢٪ (سوفييتسكايا روسيا، ٥ أبريل [نيسان]، ١٩٦٩).

وهكذا يخشى الكثيرون ممن اشتركوا فى مناقشة هذه القضية، من ان الحملة الحالية ضد الكحولية، مثل كثيرات قبلها، لن تستطيع شيئاً للاقلال من استهلاك الكحوليات أو خفض عدد مدمنيها، طالما ان القادة السوفييت يتجاهلون الحقائق ويصرون على رفض أى علاقة بينها وبين الأسس السياسية والاجتماعية التى يقوم عليها سلطانهم، ولن يقروا بأن موضوع الداء هو طبيعة النظام الاجتماعى السوفييتى بذاته.

الآراء المنشورة فى المجلة هى آراء كتابها ولا يجوز اعتبارها بأى شكل
كان عقيدة سياسية أو وجهة نظر المعهد

المواد المنشورة هنا يمكن اعادة طبعها أو اقتباسها بشرط الاشارة الى مصدرها

ARABIC REVIEW

No. 26, 1970

CONTENTS

The Political Objectives of the International Symposium in Alma-Ata 3
By Süleyman Tekiner

Russian Colonialism: The Tsarist and Soviet Empires 16
By Wlodzimierz Baczkowski

The Social Composition of the Party 57
By Baruch Hazan

Analysis of Important Developments in the Soviet Union 61